رواية

لِيكُورِنَا

2010 - 1759

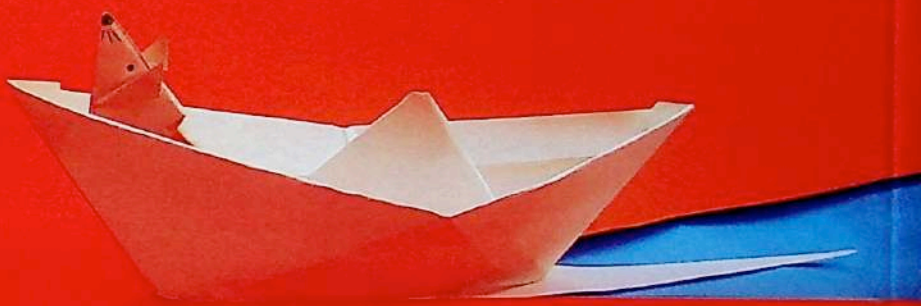

محمد الطماوي

ثقافة THAQAFA
للنشر والتوزيع ذ.م.م
Publishing & Distribution L.L.C.

لِيكُورْنا

to my great teacher.

Mohamad Ahmed

15 July 2019

لِيكُورْنا

محمد الطماوي

ثقافة THAQAFA
للنشر والتوزيع ذ.م.م
Publishing & Distribution L.L.C.

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى: أيار/مايو 2018 م - 1439 هـ

ردمك 978-9948-24-473-8

جميع الحقوق محفوظة للناشر

ثقافة THAQAFA
للنشر والتوزيع ذ.م.م
Publishing & Distribution L.L.C.

كابتال تاور، مركز أبو ظبي للمعارض ADNEC
ص. ب: 27977، أبو ظبي، الإمارات العربية المتحدة
هاتف: 6766700 (2-971+) فاكس: 6766972 (2-971+)
بيروت هاتف: 786233 (1-961+) فاكس: 786230 (1-961+)
بريد إلكتروني: smartd_1@eim.ae

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة تصويرية أو الكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو بأية وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات، واسترجاعها من دون إذن خطي من الناشر.

تصميم الغلاف: محمود الطماوي

إن دار ثقافة للنشر والتوزيع غير مسؤولة عن آراء وأفكار المؤلف. وتعبر الآراء الواردة في هذا الكتاب عن آراء المؤلف وليس بالضرورة أن تعبر عن آراء الدار.

كلمة

الخطابات كالبشر،

تختلف في مظهرها،

وتتشابه في مضامينها.

محمد الطماوي

أُعطي الشتاتَ هُويَّتينِ،
وبسمةً..
وليَ الدموعُ،
الحزنُ يعرفُ أهلَهُ..

الشاعر أحمد بخيت

على مقربة من شاطئ ليكورنا

9 حزيران 1744م

"هروبي من سفينة هروبي لا يفارق ذاكرتي أبدًا. كنت أستسلمُ لموْج البحر وأغمضُ عينيّ احتماءً من شرر الشمس المحرقة. يضربني الماء بقوّة كَمَن يعذّبه سجّان بعصا كبيرة على جرم لم يقترفه. أفترشُ موج البحر كي أرتاح من سباحة دامت نصف ساعة متواصلة. اطمأنّ قلبي عندما لاحظت أنّ السفينة التي قفزت منها لم تعد تلاحقني، وأنّ أصوات البحّارة الحانقين والباحثين عنّي قد خفتت، فتراجع خفقان قلبي وأصبح صوته طبيعيًا.

لم يراود مخيّلتي أني سأهرب يومًا من الشام مختبئًا على ظهر سفينة للبضائع تحمل الحرير والعصفر إلى ليكورنا – طوسكانه. فبعد أن لكمت صاحب الحانة التي كنتُ أعمل فيها لكمة أفقدته توازنه وألقته مغشيًا عليه في أرضية حجرة النوم؛ استشعرت الخوف من أن يستفيق الزوج البدين ويبحث عني، فيفتضح أمري.

كانت الرحلةُ إجبارية، والوجهةُ غامضة، والرَّحْلُ غير جاهز.

تحيّرت طويلاً في أي طريق أسلك. لم يتحير آدم هكذا عندما أصغى لحواء وأكل من الشجرة المنهي عنها.

كانت رحلة آدم إجبارية، ووجهتُه أرضيّة، ورَحْلُهُ جاهزًا.

أشارت عليَّ حبيبة أن أرحل في أي سفينة أو مركب في أسرع وقت قبل أن يدركني التاجر البدين، فيقتلني أو يضعني في السجن. بخوفٍ تركَتْ على شفتي قبلةَ وداعٍ حارّة. سألتها عن وجهتها، أوْمَأت لي ألاّ أقلق. ارتديت ملابسي في عُجالة، واقتربت من التاجر المطروح أرضًا لأتأكّد أن أنفاسه ما زالت حاضرة.

كلصٍّ مُطارد هرعتُ إلى الطريق خارج الحانة، أهرْولُ على رصيف الميناء الخشبي، لا أعرفُ إلى أين. رأيت سفينة توشك على الرحيل، ارتفعتْ مرساتُها إيذانًا لبدء الرحلة. دون أن يلمحني أحدٌ من البحارة قفزتُ في الماء أسفلها بغير تردّد. تسلّقتُ جدارها بحذر، ورحت أدسّ نفسي بين بالات البضاعة المتراصّة بعدما نزلت خلسة إلى مخزن السفينة، حتّى اختفى شبحي في الظلام.

رطوبةُ البحر لم تسمح لملابسي المبلّلة أن تجفَّ سريعًا. كان صوتُ طقطقة الأخشاب، كلّما ارتفعت السفينة وانخفضَتْ، يثيرُ في قلبي الرعبَ والهلع. مِن ثقوب صغيرة في سقف المخزن تسرّب إليَّ الضوءُ والهواءُ، وشحيحٌ من ماء البحر قذفته الأمواج على ظهر السفينة العملاقة. من طاقة صغيرة في الجدار الخشبي السميك كنت أرى الأمواج العالية وهي تصارع جدارها الخارجي في عناد. من شدّة سخط الموج، استحال لونه من الأزرق إلى الأبيض.

لأكثر من ثلاثين ليلةٍ طالت رحلتي الاضطرارية. قضيتها أختبئ بين جوالات كبيرة من الذُّرة والبضائع. لا أجد حولي طعامًا أملأ به بطنًا خاوية، وكاد الجوع أن يفتكَ بأحشائي بعد انقضاء ليلتي الثانية على سفينة لا أعرف إلى أين تتَّجه. كاد أن يقرضني الجوع، لولا أنْ

تداركني جُرَذٌ صغيرٌ هاربٌ، مثلي، بفكرةٍ جيّدة. نبّهني الجُرَذُ إلى أنّ حبّات من الذرة المسروقة مِن جوالات على ظهر سفينة في عرض البحر، هي الزاد المثالي للهاربين والمطاردين والفارّين، بشرًا كانوا أو جرذانًا.

اقتربتُ من الجرذ وأنا واهن القوى، لَم يخشَ هو على نفسهِ أن يصيبه ضررُ الاقتراب من إنسانٍ مثلي ظهرتْ على وجهه آثارُ التعبِ والإنهاك، فلا يستطيع معه الحركة أو البطش أو الاحتراب. ربّما رأى الجرذ في حالتي ضعفًا يمنحه الأمان. ربّما رأى فيّ رفيقًا يقف في صَفِّهِ ضِدَّ بطش البحّارة، ومطاردتهم التي لا تتوقف. ماذا يريدون من قارض ضئيلٍ يستعيرُ بضع حبّات من الذرة ليحرّك مفاصله الضعيفة، فيواصل سفرَه الاضطراري؟

عندما رأيت الجرذ، كان قد أحدث بأسنانه فجوةً في جوال ذرة يقبع في ركنٍ هادئ من المخزن، ويتوارى عن أعين البحّارة التي لا تغفل. حبّات من الذرة الصفراء الذهبية تتساقط على أرضية السفينة المهترئة. يبدو أن الجرذ لم يتذوّق الطعام مثلي منذ انطلاق سفينتنا في رحلتها، وهي تسير إلى وجهة لا أنا أعلمها ولا الجرذ. كرّرتُ ما فعله القارض الصغير بأنْ مددت أظافري وأحدثت أنا كذلك فتحةً كي آكل منها، مثلما فعل رفيقي.

ذكّرني الجرذ بأيامي الطويلة التي قضيتها في نسكٍ وعبادةٍ وانقطاعٍ في قَلاَّيَتي بوادي قاديشا، كان الطعام فيها ليس له أيّة قيمة سوى أن يعينني في رحلتي الطويلة إلى الربّ، المجد لاسمه. ها أنا اليوم أبحث عن الفُتَاتِ من حبّات الذرة لكي أكمل هروبي في رحلة لا

أعرف إلى أين تأخذني نهايتُها. توهّمتُ حينها أنه ربّما كان هذا الجرذ ناسكًا في قلاّية الدنيا، يحاول أن يكمل رحلته القصيرة إلى وجهة لا يريد الإفصاحَ عنها. وربّما كان ملاكًا مُرْسَلاً مِن قِبَلِ الربّ، يريد أن يدلّني على طريق العودة إلى قلاّيتي القديمة.

كاد جوال كامل من الذّرة أن ينضب من استهلاكي أنا والجرذ. سويًّا نبشنا وفتّشنا بين بقيّة الجوالات التي امتلأ بها مخزن السفينة. انقضّ كلانا على البلح المجفّف، الذي وجدناه خلال بحثنا الجنوني عن الطعام وكأنّنا عثرنا على كنزٍ في جزيرةٍ مهجورة. التوابل والبهارات والصوف والبنّ والعصفر والحرير لم تصلح جميعها كطعام لنا، رغم أنّنا اختبرناها سويًّا في البداية دون تفكير. هزل جسدي وخارت قواي حتّى برزتْ عظامي من قلّة الطعام، واستحال يومي كلّه إلى نوم وكسل وخمول.

في صباح يوم مشرق كنت لا أزال نائمًا. أحلم بأنّ التاجر البدين الذي لكمته في غرفة نومه يطاردني، وقد صار في الحلم شابًا ثلاثينيّ مفتول العضلات، يمسك بي من رقبتي، ويكاد أن يقتلني. استيقظتُ مفزوعًا على وقع هزّات أحْدَثَتْهَا أقدامُ البحّارة الحانقين بالقرب مني وهم يطاردون المسكين الصغير، رفيق سفري ورحلتي المجهولة.

ما دلّني على النجاة في هذه اللحظة العسيرة إلاّ صريرُ الجرذ وهو يحاول الهرب، أو يحاول في صراخ جنوني أن يوقظني، أنا صاحبه الوحيد، علّني أنجو بنفسي، أو أنجيه.

عندما رأى البحّارة جسدًا ضخمًا يرقد في حذر بين جوالات البضاعة، تأخّر ردّ فعلهم للحظات من فرط المفاجأة. كان ذلك

كافيًا كي أركض وأصعد إلى ظهر السفينة في هرولة، ثم ألقي بنفسي في البحر بسرعة خاطفة، مثل جرذ ماهر يراوغ يدًا باطشة تريد النيل منه.

عندما لامَسَتْ مياهُ البحر جسدي، غطستُ طويلاً قبل أن أَظهر على بعد مائة قدم تقريبًا، وأسرعت بعدها في العوم باتجاه شاطئٍ ظَهَرَ لي من بعيدٍ، وأنا منهك القوى. بكلّ ما ملكتْ أطرافي من قوّة أخذتُ أضربُ في أمواج البحر وهي تشدّني ناحية السفينة، حتّى خرجتُ من دائرة جذبها، وصرت حُرًّا وهاربًا في آن.

عندما كنت أتمدد على ظهري فوق موج البحر، لم يكن يشغل بالي حينها سوى صوت صرير الجرذ الصغير، الذي بفضله نجوتُ من الجوع والموت.

تُرى أين هو الآن؟ هل اختبأ في شقٍّ صغيرٍ على سطح السفينة المهترئ؟ هل وصلتْ إليه يدُ البحّارة التي تخاف بطش قبطان السفينة والتجّار المنتظرين بضاعتهم في الميناء؟ هل انتهى به الحال متعلّقًا بأي شيء ربّما كان قد طَفَا على مقربة من السفينة بعدما أُجبر، مثلي، على الفرار مُجددًا؟ وما الذي يدفع جرذًا ضئيلاً مثله للرحيل وحيدًا إلى المجهول هكذا دون عشيرةٍ أو صاحبٍ أو حبيب؟ هل كان ركوبه ظهر هذه السفينة البائسة خِطّةً أم محض صدفة؟ طموحًا أم هروبًا مِن ألمٍ ومعاناة؟ سعيًا للرزق أم بحثًا عن ساحة جديدة للتسوّل والسرقة؟

كانت الأسئلة تغلي في داخلي، أعصرها من سحابة فِكْرٍ رماديّة، ثم أسقطها عليّ، وأُلْبسها ثيابي، وأضعها فوق رأسي، وأجيب عنها، وأنفيها، وأستنكرها في آن.

اشتدّت الشمس. واصلتُ السباحة بسرعة أكبر، وانتابني شعورٌ جديد عندما تراءتْ لي في الأفق القريب ألوان برتقاليّة في شكل بيوت تختلف عن بيتي الخشبـــي، بيتي الذي هجرته في طرابلس بعد مـــوت والدتي. شعور لم أجرّبه وقتما كنت أعتلي حبيبة في حجرة نومهـــا، ولا في لحظة مطاردة البحّارة لي بعد اكتشافهم أمر وجودي بينـــهم خِلْسة، ولا في لحظة وداعٍ لجرذ صـــغير، كـــان شـــريك رحلـــتي الاضطرارية.

مطار أمستردام – هولندا

17 يناير 2010م

يجلس ملتصقًا بالنافذة متكوّرًا على نفسه، حتّى أصبح جنبه الأيمن المستند إلى الجدار أسفلها وكأنّه شكل هندسي مكمّلاً للنافذة البيضاوية الصغيرة للطائرة. يجلس تمامًا مثلما كان يفعل في أيّ رحلة بالحافلة عائدًا إلى قريته في وادي النيل، أو في ذهابه إلى جامعة الأزهر في القاهرة، أو في سفره الطويل عبر صحراء سيناء. لعلّه ينتهز الفرصة ويتصيّدها لكي يخلو بنفسه بعيدًا عن الصخب، والزحام، وقلق الطريق. يشعر بضآلة الدنيا عندما يفتح عينيه، ويطلّ من نافذة الطائرة بعد إقلاعها، فيرى الأشياء الكبيرة من بعيد تصغر، ثم تصغر، ثم تتلاشى. صراخٌ عميق داخله يشعره بأنّ صوتَ محرك الطائرة أبدي، ولن يتوقّف عن الطنين أبدًا. صوتٌ رتيبٌ متكرّر يشبه الصمت، ويشعره بالرغبة في الصراخ، ليرفض أي شيء دون سبب.

وحدها الرحلة الطويلة القصيرة تعذّبه. سبع ساعات ويصل إلى نقطة بدء جديدة، لن تكون الأخيرة. لا نهاية للرحلة، ولا وصول للغاية. فالأشياء التي لطالما اعتقد أنّها كبيرة في الماضي؛ ها هي الآن تصغر، ثم تصغر، حتّى تتلاشى. ليس هناك أيّ جديد؛ فمساحة الأشياء في تفكيره لم تتغير، وحجمها ما زال كما هو. موضع البصيرة

فقط هو كل ما تغيّر خلال رحلته التي استمرّت قرابة العشرة أعوام في منفاه الاختياري الأوّل. فالأشياء قد تبدو لنا تافهة عندما ننظر إليها من الأعالي. وربّما تتلاشى إذا ابتعدنا عنها.

هو كذلك أراد أن يبتعد.. أن يواصل هروبه الدائم.. أن يطير إلى شجرة أخرى في طريق الغياب.. أن يجرّب جلدُه الخشن الخمري شاطئًا جديدًا.. أن تتذوق شفتاه الغليظتان مياهًا غير تقليدية.. رحلة أخرى في سلسلة الرحلات التي يدعونها "الحياة".. رحلة أخرى لا يعرف لماذا يطلبها، ولماذا يخوضها، وما الذي يدفعه لإكمالها. يطير مثل طائر مجنون ضاع وتاه من سربه في يوم عاصف، ولن يدلّه على موضع سربه أي دليل أو خليل.

محطات سفر كثيرة زارها طوال رحلته. صارت هذه المحطات أماكن دافئة تَقِيه بَرْدَ الغياب. أَحَبَّ كل ما فيها.. صوتَ القطارات الحزين الذي ينادي على الغرباء أنْ حان وقت الرحلة.. صفيرَ معاون المحطة وهو يصيح بالغافلين من المسافرين والمطاردين والصالحين والطالحين أنّ القطار يسع الجميع، وأنّهم سواء أمام الرحيل.. حركةَ المارّة الحثيثة.. هرولةَ الشباب واستهزاءهم بميعاد تحرّك الحافلات.. تشبّثَ طاعني السنّ وتعلّقَهم القوي بأيدي من يمدّ لهم يدَ المساعدة لحظة صعود الحافلات والقطارات. أصبحت جميعها بالنسبة إليه ملاذًا من وعثاء الرحلة.. سكينةً من ألم الفراق.. وراحةً من السفر الدائم. كم تمنّى أن تنتهي رحلته على كرسيّ في إحدى تلك المحطات الكبيرة.. فيرى الراحلين والعائدين دون أن يشغل باله بالمحطّة القادمة، أو المحطّة السابقة.. ماذا عن

محطة قطار برلين؟ أو محطة الحافلات "فكتوريا"؟ وهل هناك أجمل من محطة باريس!

أخذت رحلته منعطفًا آخر هذه المرّة. بعد رحلة دامت عشـــرة أعوام في ألمانيا؛ قرّر سامي أن يغادر أوروبا ويذهب إلى أمريكا. علّه يجد هناك ما بحث عنه كثيرًا.. علّه يجد ما يقنعه بضرورة وجـــوده في هذه الرحلة.. علّه يجد ذاته!

نيويورك

صبيحة 18 من يناير 2010م

- "صباح الخير مستر سامي، هل أعدّ لك الفطور؟".

كان سامي لا زال يحاول أن يستيقظ بعد عناء السفرة الطويلة من ألمانيا إلى أمريكا مرورًا بهولندا. دامت الرحلة أكثر من ثماني ساعات متواصلة بلا راحة. متعبًا ومنهكًا من آثار السفر وَصَلَ إلى مقرّ مبيته المؤقت. ظنّ أنّ ليلة أو ليلتيْن كافيتان كيّ يرتاح من عناء الرحلة، حتّى يتدبّر سكنًا جديدًا.

اعتراه شعورٌ غريب حينما رأى المدينة المزدحمة للوهلة الأولى. بدت نيويورك من زجاج الطائرة خلّية نحلٍ كبيرة. معظم شوارعها مرصوصة بعناية، وكأنّما أمهر نحلة في الدنيا هي من نسّقتها بشكل منتظم. وكان بعضها ارتجاليًّا وعبثيًّا وحرًّا. شَعَرَ حينها أنّه لن يصبح أبدًا أحد أفراد النحل في هذه الخليّة، ولن يتذوق عسلها ولا شمعها.

في بيتٍ ناءٍ عن المدينة الهائجة استقبلته "فكتوريا". امرأة بريطانية المنشأ تعيش في أمريكا منذ أمد بعيد. تقتات على المعاش الذي تركه لها زوجها، وتؤجّر غرفة صغيرة من حجرات منزلها البعيد عن المدينة على الطريقة البريطانية B & B، والتي تعني "فِرَاشٌ وإفطار". دقيقة القوام رغم أنّ عمرها قد ناهز السبعين عامًا. عيناها الزرقاوان

المدوّرتان تشعان ألقًا وذكاءً لا يختلف عن نور البنايات الشاهقة التي تراءت لسامي وهو في الطريق إلى نُزُلِها ليلة أمس. شَعْرها الخفيف القصير المدلّى على وجنتيها لم ينجح في إخفاء تجاعيدَ وشحوب في وجهها الضئيل، أَخْفَت المساحيق التي تضعها العجوزُ كثيرًا من تفاصيله الهرمة.

استقبلته فكتوريا في ساعةٍ متأخّرةٍ بابتسامة رقيقة ويد مرتعشة تمسك بمفتاح الغرفة. اصطحبته إلى الطابق العلوي حيث مكان حجرته. سريرٌ متواضع ومنضدة قديمة عليها طقم شاي إنجليزي وغلّاية مياه كهربائية لا تتّسق ومحتويات الغرفة العتيقة. بدا المكان وكأنّه بيت يسكنه أحد النّبلاء من العصور الوسطى. لوحةٌ صغيرة في إطار بيضاوي تحمل داخلها صورةً لأحد نبلاء القرن الثامن عشر، يشبه رداؤه كثيرًا رداء النساء. سجادة وثيرة وثمينة لا تتلاءم مع أثاث الغرفة البسيط. يلتهم التراب كلّ شيء. لا بد أن يدًا لم تمسّ المنضدة بما عليها منذ فترة ليست بالقليلة. شكرها سامي وأَثْنَى – في نفاق – على الغرفة، ثم سألها عن مكان الحمّام. ذهب بعدها للنوم دون أن يغسل جلده من تعب السفر.

في الصباح، استيقظ على صوت خبطٍ بابٍ رقيق. تجاهله واستسلم لنداء النوم بداية الأمر. عادت الخبطاتُ بصورة أعلى، فاعتدل في فراشه ببطء شديد، وذهب في تكاسل ليفتح الباب.

– "صباح الخير مستر سامي، هل أعدّ لك الفطور؟، عندي شطائر من فطير التفاح، ومن الممكن أن أطبخ لك عجّة من البيض إذا أحببت".

وقفت فكتوريا تَتَّكِئُ على عكّازها الخشبـــي أسود اللون، غير مكترثة بالزمان أو المكان. ترتدي فستانًا قرمزيًّا بسيطًا، قصيرًا بعـــض الشيء، ويتدلّى على رقبتها المجعّدة عقد بسيط من الذهب يتوسّـــطه صليبٌ صغير. تنتعل حذاءً بسيطًا، لا تُسْمَعُ طرقعاتُه علـــى أرضـــيّة البيت الخشبيّة، التي تكسوها قطعٌ صغيرةٌ من السجّاد الأنيق.

بعينيها اللامعتين الضاحكتين، وشعرها الأبيض المخضّب باللّون الأصفر؛ تبعث بهجةً وأملاً في نفوس المحبطين والمشرّدين والمطاردين، مثل سامي. لا يبدو على ملامحها الحزن أو الوحدة، رغم أنّ هـــدوء البيت وسكينتها المريبة يشيران إلى ما دون ذلك. ربّما أنساها الزمان تلك الخوالج منذ عقود مَضَت. وربّما تناست العجوز حقيقة أنّ جميع من كانت تعرفهم إمّا في القبور، وإما في بيوت المسنّين، وإما في طي النسيان.

توفى زوجها في عقده السادس بعدما رفض قلبُـــه أن يواصـــلَ الخفقان. كان موته مفاجئًا مثل موت ابنه الذي ســـبقه إلى المـــوت بعامين. ابنتها الوحيدة وأحفادها هجروا نيويورك ونزحوا إلى كندا. تركوا لها بيتًا كبيرًا يحوي ثلاثةَ طوابق، وحديقةً جميلـــةً واســـعة، وعُزْلَة.

- "شكرًا لكِ سيدتي، لا أظنّ أنّي أستطيع تناول الإفطار معك اليوم". أجاب فيما هو يصارع النوم واقفًا أمامها. بنظرة لوْم رمقته العجوز مستهجنة. كانت ترغب في أن تجالسه لكي تثرثر معه قليلاً في هذا الصباح البارد. مرّ شهرٌ كاملٌ مـــذ كان آخر نزيل لديها، واشتاقت إلى أن تجالس أحدهم وأن

تحكي له عن أي شيء، أو أن تسمع من غريب أيّ حكاية، أو أن يشاركها الطعامَ أيُّ كائن غير قطّتها "فيفي".

حفظت فيفي عن العجوز كل حكاياتها وذكرياتها وشـــطحاتها. ما إن تبدأ فكتوريا في مداعبة فيفي بيدها، حتّى تتهيّأ القطّة وتفـــتح آذانها وتستمع إلى صوت العجوز المتهدّج في تأفّف.

- "وكم يوم تنوى على البقاء لدينا؟" سألتْ في لهفة.
- "لا أدري، ربما ليوم أو ليومين. سوف أخبرك اليوم بعد أن أعود من العمل، لا بد أنّ أحدهم رتّب لي مكانًا لإقامتي في الجامعة"..
- "حسنًا".

قالت العجوز وساد صمت في الغرفة لفترة قصـــيرة. شـــكرها سامي بعدها، واستأذن منها لكي يغيّر ملابسه.

من النافذة التي تطلّ على الشارع الواسع الكبير، تراءت لسامي من بعيد حلْقةٌ بنيّة اللون من أشجارٍ تَخَلّتْ عن أوراقهـــا. تطّـــوقُ الأشجارُ العاليةُ بساطًا أخضر اللون بيضوي الشكل واسع المســـاحة، تتخلّله رقعةٌ كبيرةٌ من الماء. ذكّرته أشـــجارها الطويلـــة بصـــواري مراكب الصيد التي أحاطت بجزيرة شارونة في قريته بصعيد مصـــر. ومن يومها أصبحت الحديقةُ القريبةُ من منزل فكتوريا طريقَه كلّمـــا غدا إلى العمل أو راح.

لم تكن هذه هي المرّة الأولى التي يرى فيها مدينةً غربيّةً لا تشبه قريتَه التي غادرها إلى المنفى. غير أنّ نيويورك بدت له لوحة كـــبيرة تشكلت من جميع ألوان الغرب.

رغم محاولته الجادّة ألاّ يحملق إلى كل مَعْلَم مرّ بـــه في المدينـــة الجديدة، فقد وصل متأخرًا عن موعده خمس دقـــائق. كـــان مـــن المفترض أن يكون في قسم الدراسات الشرق أوســـطية بالجامعـــة في الساعة العاشرة صباحًا. استقبله البروفيسور مايكل بترحاب وحفاوة في مكتبه.

مكتب الأستاذ الأمريكي على عكس ما توقّع سامي. تنـــاثرت الكتب بغير نظام في أرضية الحجرة، وتكدّست على الشباك الكـــبير، وفوق مكتبه الضخم. كانت تلك هي المرّة الأولى التّي يلتقي فيهـــا بالبروفيسور مايكل وجهًا لوجه. عام من المراسلات والنقاشات حول إمكانيّة العمل سويًّا. وها هو أخيرًا يصل إلى مكان جديد، تبدأ فيـــه رحلة أخرى.

- "أهلاً بك يا عزيزي سامي، أنت هنا أخيرًا" مدّ البروفيسور مايكل يده مصافحًا بقوة.
- "شكرًا لك سيدي، لولاك لما تقدّمت للمنحة".
- "الشكر موفور لك لقبولك العمل معي، كيـــف كانـــت الرحلة؟".
- "كانت مرهقة، فالمسافة كانت طويلة بعض الشيء، ولكنني هنا أخيرًا". قال وتهلّل وجهه بابتسامة عريضة.
- "سعيد لكونك هنا في القسم، لا شك أننا سوف نســـتفيد من خبرتك كثيرًا يا سامي، كم من الوقت سوف تمكـــث معنا؟".
- "المنحة التي حصلت عليها تغطي ستة أشهر فقط".

- "حسنًا، لدينا 180 يومًا من العمل سويًا، يمكننا فعل الكثير، أليس كذلك؟".

قالها البروفيسور مايكل ولمع في عينيه ضوءٌ كأنّه البرق، وارتفع حاجباه فأضافا إلى كلامه حالةً من التحدّي والإصرار. رجل عصامي شارف على الستّين من عمره، نحيف الجسم، طويل القامة. يضع نظارة كبيرة مربعة العدسات تتناغم مع أنف دقيق. عيناه في حالة تفرّس وتفكّر دائمتين. مريض بالعمل، فلا يكاد ينام سوى أربع ساعات في اليوم تقريبًا. كان يبحث عن شريك يساعده في فكّ رموز لخطابات عربية قديمة. هكذا جمعته الصدفة بسامي، الذي كان يبحث في الوقت ذاته عن بداية لرحلة جديدة.

- "هل تريد أن أصطحبك في نزهة بالقسم للتعرف على بعض الزملاء؟"... سأل البروفيسور مايكل في سعادة.
- "بالطبع". أجاب سامي في سرور وتشوّق.

نيويورك

ظهيرة 18 يناير 2010م

يجلس سامي في مكتبه الجديد يتفقده. نافذة كبيرة تطلّ على حديقة خلاّبة. مكتب بسيط وعليه حاسوب. يكسو الأرض بساطٌ أخضر قاتمٌ لونه. يترك كل شيء ويذهب إلى النافذة الكبيرة التي تمتدّ من سقف الغرفة حتى منتصف الحائط. هدوء. هذا كلّ ما يحتاجه باحث جوّال مثله. استند إلى الجدار الملاصق للنافذة. ثبّت جبينه على الزجاج في حركة استسلامية. ينظر ويحدّق إلى الفراغ لا يعرف إلى أيّ نقطة تحديدًا، تمامًا مثلما لا يعرف ما هو آت، ولا يخطّط له. سيثّبت عينيه كثيرًا هكذا في اللاوجود حتى تدركُه الحقيقة، أو يدركُ ذاتَه.

كان سامي يحدّق هكذا عندما رآها للمرّة الأولى. ذهبيّة الشعر والجفون، جميلة القلب كلاوْدِيَا. كان يحدّق إلى زجاج بهو الفندق الكبير في "دَهَبْ"، في يومٍ قائِظ. أنهى يومًا آخر مرهقًا من العمل في مكتب الاستقبال. ذهب كعادته ليستند إلى الجدار الزجاجي الكبير للفندق من الداخل، والذي كان يطلّ على خليج العَقَبَة مباشرة.

اللون الأزرق المنعكس على الجدار الزجاجي السميك يعطيه رشفة من الخدر تنسيه تعب اليوم كله. كعادته لم يكن يأبه بالسائرين

عندما يلقي جبينه على الزجاج، ويرخي جسده مستسلمًا مسترخيًا. غير أنّ وجه كلاوديا باغَتَ سكونَ عينيْه. في غضون لحظة، تَحَوَّلَ اللونُ الأزرق المنعكس على زجاجه إلى لون ذهبي ساطع كالشمس. تسمّرت عيناه عليها وتابعتاها حتّى وجد نفسه، دون أن يدري، أمام عينين خضراوين لامعتين كشمس دهب الحارقة. دون أن يتردّد سألها إنْ كانت تحتاج إلى مساعدة، فهو يعمل بالفندق في قسم استقبال الضيوف. سألها باللغة الإنجليزية. أجابته بالشكر، لكنّه استشعر من لكنتها أنها ربّما تكون ألمانية الأصل.

- "شِبِريشِنْ زِي دُوْيْتْش؟".

سألها إن كانت تتحدّث اللغة الألمانية، فتهلّلت سريرتها مجيبة: "يا" (نعم).

أخبرها أنّه درس اللغة الألمانية في الجامعة، وأنه يريد تحسين مهاراته اللغوية، ولذلك يعمل في مدينة دهب في هذا الفندق.

- "جيد كبير، أيضًا أنا بدأت دروس عربية في الجامعة منذ عامَيْن".

أجابت بعربية ركيكة، وكان لديها صعوبة في نطق بعض الحروف. سألها إن كان من الممكن أن يتبادلا تعلّم اللّغتين سويًّا، بحيث يساعدها هو في تعلّم اللغة العربية، وفي المقابل تساعده هي في تحسين الألمانية. نظرتْ إليه في تردّد، بدا عليها أنّها ترغب في ذلك أيضًا، ثم قالت بصوت خفيض: "ولِمَ لا".

* * *

طرْقٌ على الباب، قطع سباحة سامي في بحر الذكريات. من داخل مكتبه يجيب بصوتٍ عالٍ: "تفضّل". سمعته "ديانا"، فهيّأت نفسها للقائها الأوّل بالضيف الجديد، فَتَحتْ بابَ المكتب وابتسامة كبيرة سبقتها إلى الداخل.

- "أهلاً بك مستر سامي، أنا مسؤولة الشؤون الإدارية والمالية في القسم، أرجو أن يكون المكتب الجديد قد حاز على إعجابك؟".

سألته ديانا وقد مدّت يدها لتصافحه، وهي تقول "ديانا هو اسمي".

- "إنّه رائع سيدتي، شكرًا لك".

ردّ بابتسامة عريضة وهو يصافحها.

- "إن احتجت لأي شيء فقط أرسل لي رسالة إلكترونية. في هذا الملف معلومات عن أمن المكان، برجاء قراءتها والتوقيع هنا على تفهمك والتزامك بما جاء فيها. في الطابق الثاني تجد مكتبة القسم. الأرشيف مقرّه الحجرة 446 داخل المكتبة، وسوف تحتاج إلى إذن مُسبق للاطّلاع. بالنسبة للسكن سوف يكون جاهزًا خلال أسبوع من الآن".

- "أسبوع"، قاطعها في ضجر، "أليس هذا وقتًا طويلاً بعض الشيء؟".

- "لا تقلق مستر سامي، يمكنك إرسال تكاليف الفندق الذي نزلت فيه طيلة هذه المدّة، وسوف نردّها إليك".

- "حسنًا، شكرًا لك سيدتي".

- "لا شكر على واجب، هذا هو عملي. ويمكنك أن تدعوني ديانا دون ألقاب. هل تريد شيئًا آخر؟".
- "لا أشكرك يا ديانا".

شعر بالتعب رغم أنه لم يقم بعمل أي شيء في يومه القصير هذا. ربّما كان هذا من آثار ركوب الطائرة. يجب أن يذهب الآن إلى فكتوريا للراحة. ستفرح العجوز عندما تعلم أنّه سوف يمكث عندها أسبوعًا كاملاً. ستفرح فيفي كذلك، فربّما تجد أخيرًا مَنْ يريح أذنيها من ثرثرة العجوز، التي لا تكفّ عن الكلام.

نيويورك

صبيحة 19 من يناير 2010م

- "كان زوجي رجلاً لطيفًا معي. كان مؤنسي ورفيق رحلتي طيلة أربعين عامًا. توقّف قلبه عن الحركة ذات يوم حزين. لا أقول إنه كان سليمًا معافى، فقد كان عمره اثنين وستين عامًا وقتها. عانى كثيرًا من آلام الروماتويْد قبل وفاته بعامين.

لا أنسى هذا اليوم أبدًا. كان دافيد يجزّ العشب في حديقة المنزل. توقّفت ماكينة العشب عن إصدار صوتها المزعج فجأة. في البداية ظننت أن دافيد أنهى جزّ العشب المملّ في أيّام الصّيف. طال صمت الماكينة، وطال صمته.

كل ما أكره هو أنني لم أستطع أن أودّعه ولو بنظرة واحدة أخيرة قبل أن يذهب بعيدًا عنّي. انهارت قواي فور وفاته. اتصلتُ بليزا ابنتي. قلت لها إن أباها لا يتحرّك ومُلْقى على الأرض. تركتُ الهاتف وأنا أرتعد وأهتز.

عندما استفقتُ في المشفى بعد أسبوع، كان صوت ماكينة جزّ العشب لا يزال يرنّ في أذني. في البداية فَرِحْتُ، في حالة بن اليقظة والإغماء رحتُ أصيح بصوتٍ يملأه الأمل والخوف: "دافيد هل

انتهيت من الحديقة؟، طعام الغداء جاهز يا عزيزي". لم يجبني مطلقًا، سكون تامٌ دبّ في رأسي، انسلخ منه صوتُ صفير متقطّع لجهاز قياس ضربات القلب.

كانت عيون ابنتي ليزا أوّل ما رأيت عند إفاقتي، سوداءُ شاحبة كلون الثياب التي كانت ترتديها، أضافت إلى الموقف قتامة وحزنًا. تُمسكُ ليزا بيدي التي يتدلى منها جهاز القسطرة الوريدية. تضغط على كفي بكلتا يديها، يضطرب وجهها، وتنهمر في البكاء. عندما رأيتها على هذه الحالة؛ نظرتُ صوب النافذة الكبيرة في حجرتي التي أراها للمرّة الأولى. في حزن سالت من عيني دموع حثيثة مريرة".

حَكَتْ فكتوريا في ابتسامة عريضة لا تتماشي مع قصّة محزنة كهذه. يبدو أن روايتها هذه قد عرفها كلّ مَنْ زار بيتَها نزيلاً قبل سامي.

- "آسف لما حدث لك يا سيدتي".

قال سامي في حيرة، أيواسيها أم يسكت. ازدادت ابتسامتها قليلاً، رَبّتَتْ على كتفه، قالت وكأنّها تريد أن تعلّمه حكمة ما: "الحياة رحلةٌ قصيرةٌ يا فتى، لا تضيّع ساعة منها". ثم أردفت تقول بابتسامة من نوع جديد، ابتسامة مخيفة مضطربة:

"منذ ستّين عامًا كانت هذه الأرض مغطاة بالأشجار. كنت أنا ودافيد أوّل مَنْ عمّرها بعد أن كنّا نسكن في بيت صغير في بداية حياتنا. ذهبتْ الأشجارُ وجاء الناس، فصارت البيوت تتراصّ والطرق تُعبّد. كان لنا جيران وأقارب يزورونا ونزورهم. مات كلبنا منذ عشرة أعوام، بعد أن ملأ حديقتنا نباحًا طيلة الثمانية عشر عامًا هي

عمر منزلنا الجديد. بعدها توفى ابني الوحيد، ثم دافيد، ثم أحد أحفادي".

بضحكة عالية وبعيون دامعة تابعت قائلة: "يبدو أنّه حان دوري، أليس كذلك؟".

ضحك سامي، وشعر بغصّةٍ في قلبه، أَدْرَكَ الآن سرّ وجه العجوز الباسم.

- "هل أصبّ لك كوبًا آخر من الشاي؟"، سألت العجوز.

- "من فضلك، نعم".

قال وهو ينظر إلى ساعته. كان يريد أن يلحق بميعاد زيارته الأولى للأرشيف بالمكتبة. في الوقت ذاته لم يرغب في أن يترك العجوز على حالتها "الباسمة" الحزينة هذه ويغادر هكذا. رأى أن كوبًا إضافيًّا من الشاي لن يضيره شيئًا.

في فنجان فيكتوري التصميم، أزرق اللون، من البورسلين المطرّز باللون الذهبي، وعليه رسم لوردة حمراء؛ صبّتْ العجوز له قدحًا من الشاي الإنجليزي الفاخر، رائحته ساحرة. أراد أن يحكي لها أيضًا عن قصّته، وعن رحلته، لكنّه تردّد. بلطفٍ استأذن منها، وغادر المطبخ الكبير الذي توسطته منضدة الطعام وكراسيها العتيقة.

نيويورك

ظهيرة 19 من يناير 2010م

في حجرة زجاجيّة صغيرة ملحقة بأرشيف المكتبة يختلي سامي بصندوق أبيض متوسط الحجم من الورق المُقوّى. وضع قفّازًا أبيض اللون كان موظف بالمكتبة قد سأله بلطف أن يضعه عند الاطّلاع على المخطوطات.

كانت هذه هي المرة الأولى التي يطّلع فيها على مجموعة الوثائق التي ستغيّر الكثير من نظرته إلى الحياة فيما بعد. لقد أرسل البروفيسور مايكل له صورةً إلكترونية لإحدى تلك الوثائق منذ عام تقريبًا. كان الخطّ فيها غير واضح، والكلمات والعبارات غير دارجة حتّى في العربية المعاصرة، وكأنّها تنتمي إلى لغة أخرى. لم تستهوِه حينها لغة الوثيقة التي تلقّاها من البروفيسور مايكل. لم يكن يفكر حينها إلاّ في الهروب من رحلته القديمة إلى رحلة جديدة.

بحرص فتح غطاء الصندوق صعب الحركة، كأنّ أحدًا لم يلمسه منذ فترة طويلة. كشف الغطاء ليجد مجموعة من المظاريف الصفر، باهتةٌ لونها وذابلة أوراقها كأوراق شجرة في موسم الخريف. سبعة مظاريف منتفخة كان معظمها مختومًا بشمع أحمر اللون، تتوسط بقعة

الشمع رموزٌ لاتينية مرسومة بشكل سري تتداخل معها حروفٌ عربيّة.

بغير اكتراث راح يفحص الخطابات وكأنّه موظف في مصلحة حكومية لتلقي الشكاوى. عملٌ آخر كلّفه به البروفيسور مايكل إلى جانب عمله بالقسم في تدريس اللغة العربية، فقد طلب منه أن يقرأ بعض تلك الوثائق المكتوبة باللّغة العربية ثم يعدّ تقريرًا مفصّلاً عنها.

المظاريف المغلقة منذ يناير 1759م لم تثر فضولَه، فلم يفتحها. لم يهتمّ بأحد المظاريف المفتوحة، والتي ظهر منها عنوانٌ مكتوبٌ بخط عثماني متشابك:

"بمن جلاله وشانه، يرحل إلى محروسة سكندرية، يسلم بأنامل الحاج محمود شراره، أمانة مرسله بالخير، آمين".

لم يحرّك فضوله أيٌّ من هذه العلامات والإشارات، والتي تشير بقوّة إلى أنّ هذه الوثائق بكرٌ، تحوي خطابات لم يفتحها إنسان منذ ما يزيد عن مائتي عام، ولم تصل إلى أيٍّ من المرسل إليهم حتى الآن.

ربّما فَقَدَ سامي الفضول في رحلته الأولى. ربّما هابه شعورُ الإحباط الذي يلازم الخطابات التي لم تكتمل رحلتها.

شرد بذهنه ناحية الشباك المطلّ على شارع أمستردام بمدينة نيويورك، يكتظ الشارع بالحركة والسيارات والمارّة. وقعت عيناه على ساع للبريد يركب دراجة ويحمل مجموعة من الخطابات يوزّعها على البيوت والمتاجر. تأمّل حينها مصيبة ضياع الخطابات. بدا ساعي البريد في نظره وكأنّه مجرمٌ يسابق الزمن لكي ينتهي من عمله الرتيب، فيلقي بالخطابات دون اكتراث لما تحمله من رسائل. تساءل في ضجر،

أيّ كارثة أو بلوى يمكن أن يسببها إهمال، ولو بسيط، من حامل الرسائل؟

بعد أن اختفى ساعي البريد عن مدى رؤيته، تذكّر فجأة قولَ فكتوريا: "الحياة رحلة قصيرة يا فتى". لا يفهم كيف لا تفارق سمعه هذه الجملة التي وضعتْهَا العجوز في أذنيْه هذا الصباح. فبرغم رحلتها التي طالت، فإنّها تبتسم دائمًا، حتّى حين تحكي أشدّ المواقف حزنًا وإيلامًا.

تخيّلها وهي تتمزّق بكاءً عندما تخلو بنفسها. تجفّف دمعها كلّما رأتْ أيّ شخصٍ يقترب من منزلها المُبْعد. تجلس، تراقب فريستها، حتى إذا شعرت بأي حراك في الجوار؛ تركت بكاءَها ووحدتَها في غرفة نومها، وفزعت بجنون إلى الطريق تلغو مع أوّل شخص يقع نظرُها عليه. تخفي وراء وجهها الباسم شقوقًا وتجاعيد نَحَتَ البكاءُ فيها وديانًا دون أن تدري. "الحياة رحلة قصيرة...". ترك الصندوق في غرفة الاطّلاع الخاصّة التي حجزها طيلة اليوم، ثم ذهب لتناول الغداء في مطعم الجامعة.

عندما شرع في تناول الطعام تذكّر فكتوريا مجددًا، فهو لم يشارك أحدًا الطعام في هذه الرحلة الجديدة غير العجوز صاحبة البيت القديم المعزول عن الزمان والمكان. شعر فجأة أنّه يحتاج بشدة أن يثرثر مع العجوز في أي شيء. لقد نجحت في صيده. الغريب فريسة سهلة.

فيما كان يتناول قهوته في مطعم الجامعة، يتلقى رسالة إلكترونية على هاتفه من كلاوديا. يفتحها في شعور بين اللهفة والانزعاج:

- (كيف حالك؟ أتمنى أن تكون وصلت بخير! كلاوديا، 19 يناير 2010).

رغم قِصَر الرسالة، فقد قرأها أكثر من مائة مرة في نصف ساعة. لم تتشابه القراءات و لم تتقارب. تراءت له كلاوديا في كلّ مرّة قرأ فيها رسالتها المفاجئة بمائة وجه ووجه، مائة رواية ورواية لنصٍّ واحد.

رآها وهي تبكي من شدّة اشتياقها إليه.. ثم رآها في قراءة أخرى تقهقه بصوتٍ عالٍ في عَهْرٍ وسُخرية.. وتجثو في رواية ثالثة على ركبتيها تستجديه أن يعود إليها.. وفي رواية رابعة تغار عليه من السفر.. في رواية خامسة كأرملة فقدت زوجها في حرب وتستجدي شبحه أن يبقى جوارها ولا يذهب.. وفي رواية أخيرة كخائنة تطمئنّ على عشيقها بعد ليلة ساخنة. إلاّ أنّ النصّ الذي تستند إليه كلّ هذه الروايات واحد. ولا ريب أنّها ما زالت تفكّر في رحيله غير المُبَرَّر، ويشغل بالَها التفكيرُ فيه. سلبًا كان أم إيجابًا.. كرهًا أم شوقًا.. ضعفًا أم قوّة.

لم يتوقّع أن يتسلّم هذه الرسالة أو شبيهتها. غير أنّها باغتته على غير استعداد منه، وأربكت رحلته الجديدة في بدايتها. تُرى ماذا تريد كلاوديا منه بعد ما كان بينهما؟

عشرة أعوام عمر رحلتهما معًا كانت كافية لتعلّمه كيف يتعايش مع المختلف دون اعتبار العرق أو اللون أو الدين. كانت كلاوديا باب حضارات فَتَحَ عليه معارف ومشاهد لم يكن ليتذوّقها أو ليقترب منها لولا أنْ سحبته الفتاةُ الأوروبيّة إلى واديها الأخضر.

أخذته إلى عالم جديد، كلّ عنصر من مكوناته ضدّ ما عـــرف ومـــا عاش قبلها. انتقل من لون الرمال والجبال إلى سهل الوديـــان.. مـــن جفاف الصحاري إلى رطوبة البرد والثلوج.. من دفء سماء النيل إلى برد المصانع والمدينة.

لم يدرك حين رآها للمرّة الأولى أنها ستكون مفتاحًا لباب جديد في رحلته الأولى إلى خارج حدود بلدته وقريتـــه. "ومـــاذا الآن يـــا كلاوديا"، بدأ سامي مخاطبًا لنفسه، "ماذا الآن يا أم خديجة، لم نتبادل أي حديث منذ انفصلنا العام الماضي. والآن فقط بعد وصولي بأيـــام ترسلين إليّ هذه الرسالة القصيرة التي لا تفسّر أي شـــيء! ثم كيـــف عرفتِ أنني سافرت؟ وإن كنت قد عرفتِ قبل هذا؛ فلماذا تراسلينني الآن؟ هل تتحدينني وتختبرين صبري على احتمال الغربة؟ ألا تعلمـــين أني رضعتُ الغربة في صغري، و لم أبدأ الفطام بعد. هـــل تظـــنّين أنّ الرحلة الجديدة سوف تهيبني. كيف تتصورين هذا الأمـــر و لم تكـــن حياتي معك إلاّ رحلة ومغامرة أظنّها فاشلة في معظمها. لماذا تراسلينني الآن وقد كذبتِ أكبر كذبة في عمر رحلتنا؟".

لم ينتبه إلى أنّه يمسك بفنجان القهوة ويعلّقه في الهـــواء ويطيـــل النظر إليه دون أن يدنيه إلى فمه. كان فمه فاغرًا طوال فترة محادثتـــه لنفسه دون أن يدري. أعادت له رسالة كلاوديا ذكرى أوّل رســـالة حبّ كانت بينهما. تمزّق تفكيرُه ووجدانُه عندما قارن بين الشعورين وبين الرسالتين في الحالتين.

الرسالة الأولى التي تلقّاها منها منذ ما يزيد عن العشرة أعـــوام كانت تقريبًا تحمل نفس الكلمات. على عكس حالته عنـــدما قـــرأ

رسالتها هذا اليوم، لم يتحيّر أبدًا في قراءة رسالتها القديمة. لم تتلون حبيبته بألف وجه حينها. ربّما لأنّه لم يكن يعرفها جيدًا آنذاك. ربّما لأنّه لم يكن ليقرأ رسالتها الأولى، والتي لم تتضمن أي شيء صريح يفصح له عن مشاعرها، إلاّ من خلال رواية واحدة وتفسير واحد دون شكّ: "ترسل لي لكي تطمئن عليّ بعد عودتي من السفر من دهب إلى القاهرة، لا بد أنّها تميل إليّ". كان هذا تفسيره المباشر والقاطع لرسالتها الأولى، التي بدت رسالة عادية لا تحمل أيّ استنتاج وضعه بعد أن ظلّلت سحابةُ الحبّ على ما حوله، وتشرّبت جوارحه بمطر اللّوعة.

الآن يجلس في مطعم وحيد لا يعرفه فيه أحد، في مكان بعيد عن كلاوديا وعن مدينة دهب وعن قريته.. يفسر نصّ رسالتها بألف تأويل وتأويل.. يقاضيها دون دفاع منها عن نفسها.. يقرّر أنها مذنبة، فلا يعاقبها ولا يسامحها.. يشتاق إلى ضحكاتها، فيحولها شكُّه في صدقها إلى سيلٍ من البكاء.. يفتقد ملمسَ جلدها الحريري، فتظهر له على هيئة جنزير حديدي يريد أن يهرس قلبه.. في هذه اللحظة كانت صورتها تتلاعب بخياله في أشكال واحتمالات شتّى، استبعد منها أيّ صورة تدّل على اهتمام بغيابه، ولو بسيط.

أغلق الجوّال في ضجر. ثم عاد إلى حجرته الزجاجيّة ليكمل عمله الرتيب.

ليكورنا

15 من كانون الثاني 1759م

"لا أعرف لماذا أكتب هذه الكلمات، لم أكتب شيئًا قبل هـذا غير الخطابات التجارية التي تكتظّ بالحسـابات والأرقـام وأسمـاء البضائع. لا أعرف حتى إنْ كان هناك في هذا العالم مَن يحفل بقراءتها، أو بحكاية كاتبها. أكتبها باللّغة العربية لأنّي – وبعد خمسة عشر عامًا من الاختباء في المنفى – أخفقت أنْ أكتب بأيّ لغة غيرها. ثم إنّ مـا حدث لي وما عشته من تجارب لا يمكن بأي حالٍ أنْ تصفَه لغةٌ غير لغة أمي التي أرضعتني حروفها مع اللبن.

لا أعرف من أين أبدأ، ولكنّي أشعر بالنهاية. سـوف أحكـي قصّتي وما أشعر به، لا طامعًا في أن يتذكّرني أحد، ولكنّني فقط أحمي ذاكرتي ممّا قد ينتابها من نسيان كلّما طالتْ رحلـتي، وأوغلَـتْ في الغياب، واقتربَتْ نهايتها: ولكي أتأكدّ أن أحدًا لن يطّلـع عليهـا؛ سوف أخفيها في خزانتي الخاصة التي أضع فيها كل شـيء نفـيس، وسوف أحرص على أن أفصل بينها وبـين الحسـابات التجاريـة والخطابات والدفاتر...".

* * *

كان سامي يجلس في ضجر، بعد قراءته رسالة كلاوديا، يكمل عمله على مضض. وقع بصره في فحصه السريع للمظاريف الصفر في الصندوق الأبيض على ظرف دخيل من مقاس كبير. تناوله على الفور وفتحه. كان هذا هو الظرف الوحيد المغلق دون شمع أحمر. بدا وكأنّه لا ينتمي لبقيّة المجموعة من الخطابات الأخرى. ورقه أكثر وهنًا من غيره من الخطابات. ربّما لأنّ كاتبه دوّن ما فيه من أوراق تجاوز عددها السبعين على مراحل، وليس دفعةً واحدة. ثمّة تعديلات كثيرة على النص وهوامش توضيحية كذلك.

ترك تصفّحه السريع للمظاريف، وانكبّ على هذا المظروف الغريب. من المحتمل أن أنطوان خير قد أخطأ سهوًا، فوضع الخطابات التجارية مع مظروفه السري على ظهر سفينة لن تصل إلى مرساها الأخير أبدًا.

في داخل الصندوق وجد كذلك بطاقة باللغة الإنجليزية مكتوبة بخط اليدّ تشرح باختصار قصّة الخطابات. وقعت السفينة المبحرة من ميناء مدينة ليفورنو الإيطالية (أو "ليكورنا" كما جاءت في المخطوط) إلى الإسكندرية أسيرةً في الحرب التي كانت دائرةً وقتئذ بين فرنسا والمملكة المتحدة بمشاركة العديد من الدول الأوروبية في ما يُعرف بحرب السنوات السبع بين عامي 1756م و1763م، والتي دارت بعض معاركها في حوض البحر المتوسط.

بعد أن وقعت السفينة التي تحمل هذه الخطابات والبضائع في الأسْرِ صار كل ما عليها من نصيب بريطانيا، ولم يهتمّ أحد بالمظاريف التجارية المملّة التي كان يحملها قبطان السفينة المأسورة في

قمرته الخاصة، ثم بيعت هذه الخطابات إلى ثريّ في الولايات المتحدة الأمريكية في سبعينيات القرن الماضي، الذي أهداها لمكتبة الجامعة في نيويورك قبل موته. لم تصل السفينة وكذلك لم تصل المظاريف. بدأ يتحمّس ويخرج من دائرة ملله للمرّة الأولى مذ جاء إلى القارّة البعيدة.

شيء ما يثير الشجنَ في كلمات أنطوان خير كان يسترعي انتباه سامي. مثل الذي يبحث عن لؤلؤة في البحر، أو الذي يرصد شهبًا في السماء؛ عكف على المظروف في شغف. لعلّ الحزن الذي كتب به أنطوان أوراقه هو ما شدّه من طرف أذنيه، وراح يسكب فيهما كلماته الموجعة.

يحكي أنطوان قصّة راهب ترك حياة الرهبنة. رغم بساطته إلاّ أنّ عينيه السوداوين الحادّتين يستعر فيهما المَكرُ كما يقدح قرص الشمس الصيفي ويلهب المرفأ في طرابلس لبنان، موطنه الأصلي.

* * *

واصل قراءته لمذكرات أنطوان خير في دهشة:

"من كَوَّة صغيرة في جدار قَلاَّيتي، قبل مغادرتي، كان يداعبني نسيم وادي قاديشا العميق، عمق تأملاتي وانسجامي مع المكان. بالرغم من هذا العمق الأرضي، شعرت بأني أردت أن أحلق بعيدًا عن هذه المساحة الضيّقة، أن تختبر عيني نسيمًا آخر غير نسيم لبنان وواديها المقدس، أن تشتم أنفي ريحًا جديدة غير تلك التي التصقت بجلدي مذ كنت صغيرًا عندما كانت تحملني أمي على ظهرها،

وتطوف بـــي شاطئ طرابلس. أن تلمس قدمي أرضًا أشدّ صلابة من رمال شاطئ طرابلس، والتي دغدغت قدمي عنـــدما كـــان أبـــي يصطحبني معه لصيد الأسماك على قاربه المتواضع.

ضاقت بـــي القلاّية أو الخلوة أو الصومعة، لا تهمني المسميّات، تبدو لي جميعها نسخًا متكرّرة تحبس طـــاقتي وتقـــوّض انطلاقـــي. فالصوف الأسود الذي لاصق جلدي حتّى أسفل ركبتي لم يخفِ قوّةً في بدني لا تناسب المكان المقدّس ولا أهله من الرهبان والإخْوَة.

عندما كنت أطالع الكتب المقدّسة في ساعات قراءتي الطويلة في دير "مار أنطونيوس قزحيا" بوادي قاديشا؛ لم أقرأ صـــفحات أكثـــرَ قداسة من أوراق شجر الخريف، والتي امتلأت بها غابات هذا الوادي المهيب. لم يساعدني أيُّ مفسر في فهم اللغة السحرية لأوراق الشجر المتلوّنة باللون الأحمر والبرتقالي والأصفر سوى سماء الوادي المبـــارك، وقد عَلّقَتْ ضبابَها السحري في أعلى منحنياته، وفي أشجار الأرْز التي تناثرت في غير ترتيب بديع أعلى الوادي، فسكنت في جوفـــه، وفي ذاكرتي.

النصوص التي قرأتُها في أوراق الشجر الهشّة كانت كافيـــة أن تقنعني بضرورة الرحيل، وبحتمية الفرار إلى داخلي.

رحلتُ، وغادرتُ، وتهتُ. قذفتني أمـــواج الشـــهوة في بحـــور الخطيئة. عمّدَتني ظروفُ الدهر من جديد. فلم تغفر لي ذنوبـــي، و لم تمسح عليّ قداستَهَا، و لم تصالحني ذاتي.

كان هذا بعد أن فارقتني أمّي دون أن تنذرني بقرارها المفـــاجئ. تركتْ لي بعد رحيلها سحابةً سوداء كانت تمنعني طيلة الوقت مـــن

الدخول إلى كوخنا الصغير، الذي عمّره حبُّ أبـــي، وحنانُ أمـــي، وجنونُ طفولتي.

كالنهار ينسلخ من ظلام الليل، انسلختُ من كلّ مـــا حـــولي، وكان انسحابـــي من حياة الرهبنة ومن قلايتي أصـــعب قـــراراتي. خاصمتني أرضُ الشام بعد أن فارقتني أمّي، وكـــأنّ الأرض أَنْهَـــتْ علاقتَها بـــي يوم أن استردّتْ جسدَ أمّي بعد موت والدي بخمســـة أعوام. وددتُ ساعتها لو أني أفرّ إلى لا مكان.

تركتُ لجسدي قراري، فطاف بـــي فوق الكثير من الأجساد الناعمة الشهيّة، وأذاقني جميع ما كنت أخشى على قلبـــي منه وأنا في سنوات الرهبنة. جعلني أختبر كلّ ما حـــرمتني منـــه القلايـــة، فصرتُ على النقيض تمامًا من حياتي السابقة في كنف وادي قاديشا المقدس.

بلا كرامات، أو مسبحة، أو وِرْد؛ هِمتُ على وجهي في سهول وجبال لبنان كدرويش يجول الأرض. تستنكرني أرضُـــها، وطيـــورٌ سكنتْ وديانها، وسماءٌ احتضنتْ أَرْزَها.

كابن لصيّادٍ قديم، لم يكن البحر يومًا ما كابوسًا مفزعًا يـــدقّ على سقف حجرتي، فيزعزع هدوئي. كيف وسقف الكـــوخ قـــد اكتسى بالطحالب الخضر، التي أحالتها شمس لبنان إلى لوحة ساحرة تجمع بين تفاصيلها ألوانًا وأشكالاً، وكأنّها من عالم آخر، يشبه شُعَبَ الوادي المقدس في تعقيداته وعبقريّته.

عندما كان القمر يلقى بضيائه على شباك حجرتي الصـــغير في كوخ طفولتي، كانت الصواري الراسية في المرفأ تنعكس صورةُ ظلّها

على الجدار المقابل للشباك، وكأنّها صورٌ لوحوش كبيرة. هذا ما كان يخيفني حقًّا.

كبر ظِلّي، فتركتُ الكوخ، ولم تعد الانعكاسات والظلال تخيفني في قلايتي التي يحتضنها أخدود الوادي المقدس. بل تبدّل الخوف بحلم سفرٍ كبير.. برغبة مُلحّة في الهروب من قارب والدي الصغير.. بحاجة كبيرة للرحيل إلى ما وراء كوخنا المتواضع الدفيء.. بحتمية الفرار من برد قلايتي ذات الجدران الحجرية الصمّاء.. وبشعورٍ ملحٍّ لترْك الحزن على حضن أمّي وهالتها، والإبحار في المجهول..

لم يخلقني الربّ، المجد لاسمه، قنوعًا مثل والدي. كم تمنّيت أن يخرس شيطاني، الذي لم يكفّ عن دعوتي في كل مناسبة إلى الهروب على ظهر واحدة من السفن الكبيرة إلى أبعد ما تستطيع موجةٌ أنْ تحمل سفينة.

كنت أحدّث نفسي بأنّ أمي وتدٌ أخيرٌ يمسك بخيمتي ضدّ مهبّ الرحيل. غادرتُ حياة الرهبنة في وادي قاديشا يوم أن انكسر وتدُ خيمتي، فصرتُ كسفينة بلا دفّة، أو كموجةٍ بلا ضِفّة.

مشيتُ بجوار النهر المديد الذي يقطع الوادي المقدّس تجاه طرابلس، وصورة والدتي انتشرت على أوراق أشجار الأرز، وفي الحجارة الصغيرة التي تجمّعت على ضفتي نهر قاديشا، وفي مياه النهر النقيّة التي ذكرتني بصفاء سريرة أمي وطهارةِ قلب أبي.

بحثت عن العمل في كلّ مكان، فلم تضافرني خبرةُ عشرة أعوامٍ قضيتُها في أورادي ونسكي وصلواتي، ولم أقنع أي صاحب عملٍ بمهارة لا أمتلكها. لم يقنعهم بناءُ جسدي القوي أنْ أبدأ في تعلّم أيّ

حرفة جديدة، فتكون مصدر رزق ليّ. انتهى بـــي الحال هائمًا على وجهي في الشام أقصد أماكن عديدة، حتى وجدت عملاً في حانـــة صغيرة قرْب المرفأ.

كانت تدير الحانة امرأة في عقدها الرابع، يترك لها زوجها تشغيل الحانة كلّما أَبْحَر. لم تكن حبيبة في حاجة للعمالة، فحانتها الصـــغيرة ونوعية الزبائن المترددين عليها لا يتطلب بالضرورة أكثر من موسى، مقدّم الطلبات للزبائن. عندما سألتها عن عمل ومبيت، لم تتـــردّد في أن ترحب بـــي على الفور. كان ترحيبًا أشبه بمعانقـــة، ومصـــافحةً أقوى من وقع قُبلة.

لم أسألها مسؤوليتي في العمل، كل ما أردته هو مكـــان يحمـــي جلدي من عناء التجوال بلا مأوى، بأي مقابل. وكانت تجهز هي في خيالها حين صافحتني كيف ومتى ستبدأ معي.

كنت أبتسم رغم أن عينيّ تغوصان في حزن شديد؛ وتخفى هي الكثير من الشبق خلف عينين بدا عليهما الاحترام والكبرياء. تعـــرف حبيبة كيف تختار ضحاياها. لم يكن زوجها البدين ليرضي جمـــوحَ عينيها، وطموحَ جسدها المنحوت من رخام. ولم تتطلّع هي إلى ماله وثروته. كل ما أرادته هو رجل دفيء يمطرها كلّ ليلة مـــن ســـحب حنانه، ويطفئ شمعتها التي استهلكت كلّ شحمها، ولم يتبقَّ منها غير فتيلة سوداء شاحبة، كعينيها".

* * *

فيما كان يقرأ سامي بشغف ويتخيّل رحلة أنطوان خير الموحشة؛ إذ به يسمع طرقًا خفيفًا من جهة الحائط الذي كان يفصل قمرته الزجاجية الصغيرة عن محيط المكتبة الكبير. رفع عينيه في تراخ حتّى يكمل قراءة السطر الذي يتوقّف عنده، ثم رأى عاملَ المكتبة يلّوح له أن الوقت أوشك على الانتهاء. كان عليه أن يغادر المكتبة الآن تاركًا لبنان وقصّة الراهب الشيّقة. اقتربت الساعة من السادسة، وكان الطقس في الخارج باردًا. ترك الغرفة الزجاجية وتوجّه إلى مكان المتعلّقات. تناول معطفه وشاله الأزرق، ثم ترك البناء الكبير وخرج إلى الشارع المزدحم.

فيما هو في القطار عائدًا إلى مقرّ إقامته المؤقت في بروكلين؛ إذ به يبحر في ذكرياته ورحلته. يقارن بين ماضيه وبين قصّة أنطوان خير. بين الصوفي الذي ترك طريقة جدّه الكبير، وبين الراهب الذي هجر ديره ووادِيه المقدس. الرحلات تتشابه والتجارب تتقارب والحكايات تتواتر، رغم تباعد السنين واختلاف الأماكن.

يجلس في مقعده الجامد في القطار. تراقب عيناه في شجن كلّ ما يتحرّك خارج النافذة. يظنّ أنّه وأنطوان خير نسختان من رحلة واحدة. قد تختلف الوجهات والشخصيّات والمسارات، لكن الغاية والنهاية متشابهتان. أخذ يسأل نفسه، ألم يترك موطنه قاصدًا رحلة الغياب؟ وما الذي صَبَّ في مخيّلة أنطوان خير حلمَ الرحيل؟ أليست الرغبة في الابتعاد والترحال هي أساس المآسي ومصدر الوهن؟

تساقطت الأسئلة على رأسه كالمطر الذي يتحوّل فجأة إلى قطع كبيرة من الثلج. عَلاَ صوتُ الجدل الذي يختلج به صدره: "إذا كان

الألم يستوطن الترحال، فسحقًا للسفر. إذا كانت المآسي عنوانَ الغياب، فبعدًا للرحيل".

كم تمنّى أنْ لم يقابل كلاوديا. بقدر ما أحبّها، فإنّ كرهه لها يأتي من مقته لِما صار عليه بسببها. كم تمنّى لو أنّه لم يترك موطنه منذ البداية. لو فعل ذلك، لربّما تجنّب خسارته في رحلة لن تأتي ثمارها إلاّ إذا اقتُلِعت شجرتُه وزُرِعت، بالوَهَنِ، في أرضٍ جديدة. كم تمنّى أن تنتهي حياتُه كبقيّة أفراد القطيع، أن يختفي ويذوب في الجماعة دون شذوذ. كم تمنّى أن يتلاشى طموحُه مثلما تذهب وريقات الشجر مع الريح، دون وجهة أو مقصد، تطير في الهواء، يسيّرها كيف يشاء. كم هو سهل أن نترك الأقدار والظروف تحرّك مصيرنا دون جهد أو عناء.

نيويورك

مساء 19 من يناير 2010م

من بعيد بدا بيت فكتوريا مثل كوخ خشبي منسي يرضخ تحت أمطار العزلة. تضرب المياه سقف المنزل فيزداد لمعانًا من فرط تزاحم قطرات المطر الكبيرة الساقطة عليه بقسوة، والتي تدافعت وكأنها تحاول، على يأسها، أن تطفئ نارًا اشتدّ وطيسُها في صدر العجوز باردة الأطراف.

تجلس فكتوريا متربصة بأي قلب قد يمرّ عن غير قصد أمام بيتها المنفي، مَثَلُها كمثل ضَيْغَم عجوز يراقب بحكمة حركات غزال شَرَدَ عن قطيعه، علّها تجد منه أذنًا تسمع أو يدًا تربّت أو قلبًا يرأف بها ويملأ فراغ وحدتها.

عندما تركها في الصباح، لم يكن سامي مستعدًا على الإطلاق أن يشارك العجوزَ ذكرياتها البعيدة القاتمة، التي غاصت في بحر من الأحزان تشابَهَ لونُه مع زُرْقةِ عينيها الخائرتين. ذكريات حفظتها عن ظهر قلب. قصّتها على مسامع المارّة، وعلى الأثاث العتيق، وعلى الحيوانات الأليفة التي انتشرت صورُ البحث عنها في الطرقات، وعلى نسمات شهر يناير الباردة، وعلى فتات الثلوج البيضاء كل عام. من فرط ما حكتْ العجوز أقاصيص من ذكرياتها، مضافًا إليها اختلاقات

كثيرة، أجادت روايتَها وأتقنتها حدّ الاحتراف. تمامًا مثلما يستمكّن خطيب الجمعة المفوّه من خطبة ألقاها سبعين مرة.

ذاكرةُ سامي، بعد ما وجد في الأرشيف من مخطوطات أنطوان خير، نشطتْ فجأة. استعادت قوّتها واستدعت تفاصيل كثيرة لحكاية أخرى شبيهة. وعلى الرغم من أنه لم يكمل قراءة حكاية أنطوان بعد، فإنّه يراهن أمام نفسه أنّه سيجد صدى لقصته يتأرجح داخل صدره، ويلهب ماضيه، ويزعزع مستقبل رحلته الجديدة في مهدها.

لم يكن مستعدًّا هذه الليلة لسوْط المطر. كان يرتدي معطفًا من القماش الذي يمنع تسرّب الماء للداخل. رغم جفاف جسده وملابسه التي وضعها تحت المعطف باهظ السعر؛ غير أنّه كان يشعر بأن أمطار العزلة تغمر كلّ جوارحه، وأن نفسه تغوص في ماء الغياب، وأن روحه مكبلةٌ تحت أمواج الترحال.

عندما كان صغيرًا، كان يأتي المطر كلّ عام مرّة أو مرتين ليزور الحي الصغير الذي كان يعيش فيه طفولته. كان الأطفال يتركون أي شيء ويهرعون إلى الشارع الترابي متى حضر أمير الصحراء والوادي في زيارة خاطفة. وأيّ أمير له حكم الصحاري سوى المطر؟ كان الأطفال يستمتعون بالضيف العزيز. يهديهم زخّاته ومرحَه وهزله معجونًا بنسيمٍ صيفيٍّ برائحة النعناع المزروع على شبابيك أمهاتهم، وممزوجًا بعبق تراب الشارع السحري، ومجبولاً بهيبة شيخ كبير مرّ من أمامهم وترك في ذاكرتهم ابتسامة رضى، وغبطة. هيّأ سقوط المطر، ولو أنّه لم يدم غير بضع دقائق، موسمًا للتلاحم والتواصل والمرح والمحاباة والمتعة. غير أن المطر في بلاد الثلج هذه

أصبح، عامًا بعد عام، ضيفًا ثقيلاً. فلم يجد أطفالاً يلهون احتفاءً بمقدِمِه، ولا فرحًا بحضوره. وبعدما شَعَرَ المطرُ في هذه البلاد البعيدة أنّ حضوره ثقيلٌ وغامّ؛ قرّر أن يطيلَ فترة مكوثه، ولا يستعجل الرحيل. فعام بعد عام تطول فترة سقوطه عن العام السابق في هذه البلاد، انتقامًا. بينما يقلّل من عدد زياراته إلى حي سامي القديم، تشويقًا. وفي الحالتين لا يمكن للمطر مهما بلغ من الحكمة أن يرضي البشر.

لم يسر سامي بعجلة عندما اقترب من منزل العجوز رغم شدّة المطر. تجرّان قدماه جسدَه الكبير إلى مدخل البيت بالقوّة. لسانه مسلوب الحركة، وقلبه يغلى بالذكريات، رغم برودة الأجواء.

- "مساء الخير يا سيدتي، الطقس سيئ اليوم، أرجو أن تكوني بخير"..

قال بعد أن نزع معطفه المبلل ووضعه على المِشْجَب الخشبي لتعليق الملابس، والذي انتصب في ردهة البيت وكأنّه يحيي الضيوف.

- "أنا بخير، أشكرك. احكِ لي، كيف كان يومك في العمل؟"..

سألته فكتوريا بعينين متعبتين أرهقهما الضوء الأصفر الخفيض الذي أطعمت به بيتها. لم يكن يفضّل هذه الإضاءة الصفراء، ربما لأنّها تذكّره دائمًا بلون الصحاري والرمال التي أفرزته وترعرع في كنفها.

- "بخير، كان يومًا مليئًا بالأعمال والأحداث. صادفتني في أرشيف المكتبة عدّة خطابات تعود إلى القرن الثامن عشر

لتجّار من الشام ومصر كانوا يعملون في ليفورنو بإيطاليـــا.
أرسلوا خطابات لم تصل لغايتها إلى يومنا هذا"..

على الفور شعر بفداحة بوْحه للعجوز غير محسوب العواقـــب. كيف أَخْبَرَها بأمر الخطابات؟ لا مناص من أنّها سوف تنهك رأســـه بأسئلتها عن اكتشافه، أكثر ممّا كان سيفعل البروفيسور مايكل معه.

- "يا لها من خطابات شيّقة للغاية، هلاّ أخبرتني فحوى هـــذه الخطابات؟ من أرسلها؟ ولمن؟ ولماذا لم تصل إلى المرســـل إليهم؟"..

انهمرت العجوز عليه بأسئلة سريعة، وكأنّها قاضي يتفـــرّس في وجه متّهم قد أثبتتْ التحريّات أنّه مذنب، وأنّه ســـوف يُســـاق إلى سجن طويل.

- "سأحكي لك بالطبع عن كل التفاصيل، ولكني أعتذر منك الآن، فإني منهك القوى وأرغب في الراحة. لكني أعدك أن أسرد لك التفاصيل عندما تحين الفرصة. أرجو أن تعذريني!

أوْمَأت العجوزُ برأسها في هدوء أحاطته حالة من الخيبة. حيّته، ثم ذهبت إلى حجرتها تجرّ في أطراف فستانها القصـــير وعكـــةً مـــن الإحباط، وألمًا من فرط الوحدة.

***

عندما وضع سامي جسده في الفراش وأغمض عينيه، زيّن لـــه الخيّالُ أنّه يرى شبحَ كلاوديا وقد تعلّق بسقف الحجـــرة كفـــانوس أسود اللون. لم يمنع هدوءُ نومه على ظهره في ظلمة الغرفة البـــاردة

معارك اشتدّت بين ضلوعه، وانهالت على ذاكرته، وقطّعت تفكيرَه بسيف الحسرة، كما لو أنّه كان في معركة خاسرة.

قبل عشر سنوات، عندما استسلم لطعنة الطموح بداية الأمر، كان اللون الوردي هو كل ما غلّف حلم اليقظة. عندها كان لا يزال يحدّث نفسه ويمنّيها. سيرحل ويتغلّب على تبعات القرار المفاجئ.. سيودّع الماضي المشوّش ويفتح صفحة جديدة بيضاء كوجه كلاوديا الوضّاء.. سيترك الصحراء في دهب وفي شارونة ويغادر إلى بلاد لا رمل فيها ولا هجير.. كالمريد تجذبه الحقيقة، جذبته عيناها.. أخذت عليه العهد عندما صافحت يده بجرأة، كالذي صافح قطبًا صوفيًّا فشعر برعشة ارتعدت منها مفاصله وروحه.. رأى في عينيها الخضراوين بريقًا يكفي أن ينير طريق رحلتهِ باهت اللون.. ورأت هي في عينيه أمانًا وهدوءًا وسكينةَ ابن الوادي، الذي أنضجته نخلاتُ الطيبة وأرضعته رمالُ الاستقرار.. لم يذق طعم اليتم في حياته رغم موت أبيه وأمّه، وكان فطامه الحتمي يوم أن قرّر دون حساب أن يرفع قدميه عن الرمال، ويذهب مغامرًا في رحلة خطرة خلفها.

يضطجع سامي ويقلّب الذكرى في سقف حجرته المظلمة، فتأخذه إلى عشرة أعوام يوم أن التقى كلاوديا في مدينة دهب. بعد مرور شهر على الاتّفاق الذي أبرمه معها بأنّ يعلّم كل منهما لغة قومه للآخر؛ حارت العربيةُ في قواعد الألمانية غير المنطقية، وحارت الألمانية في أصوات العربية صعبةِ المراس. غير أنّ سامي وكلاوديا ابتكرا سويًّا لغةً أخرى وسيطة تجمع بين العربيّة والألمانيّة. تشاركا فيها قواميسهما.. أضافوا كلمات وتعبيرات جمعتْ بين اللغتين

وقاربت بينهما.. حذفوا ما صعب على أصواتهما من قاموس لغتهم الوليدة، وطوّروها لتلائم حنجرتين جديدتين تليقان ببداية غضّة.

كان يخادع نفسه عندما ظنّ أن اللغة هي الهُويّة. كان يتساءل ويحدّث نفسه: "كيف تكون الهوية من نتاج أيدينا عندما نبتكر لغة جديدة تتعدّى كلّ قيود العرق أو النوع أو الدين؟ كيف نصنع لغة باختياراتنا، ثم نقول إنّها هويتنا؟ الهوية لا تُصنع ولكنّها تُكْتَسَب. أغلب محاولات الإنسان أن يصنع مجتمعًا أحادي الهويّة من خلال اللغة، باءت بالفشل".

كالدرويش الذي يدور حول نفسه في اتجاه واحد، دارت النقاشات والجدل في عقله دون توقف.

* * *

سامي وكلاوديا قطبان مختلفان. تحقّقت فيهما قوانينُ الطبيعة، وأعملتْ فيهما ما سرى على قواعد الجذب. فالأقطاب المتشابهة تتنافر، والمختلفة تتجاذب.

سمرةُ بشرته، التي منحها له نهر النيل في صغره عندما كان يلعب مع الأصحاب في قرية شارونة بمدينة مغاغة بصعيد مصر، كانت قطبًا مخالفًا للون جسم كلاوديا. امتصّ جلدُها بياضَه من ثلوج بلدتها الصغيرة شمال مدينة كولونيا في ألمانيا. غير أنها لم تكن تلعب في طفولتها على ضفاف نهر الرايْن مثلما فعل سامي في ترعة الإبراهيمية. ربّما لأنّ فيضان النهر المستمر كان يمنعها؟ ربّما لأن الآباء في ولاية "فيستفالن" لا يسمحون لأبنائهم باللعب والغوص والعوم في مياه نهر

غير محمودة العواقب؟ ربّما لأن الأطفال في ألمانيا لا يُتركون هكذا في الشوارع والحارات دون مراقبة قريبة من الآباء، ولا يُسمح لهم بالقفز من فوق جسر مرتفع عرايا في مياه فرع لنهر صغير، أو في مياه ترعة كترعة الإبراهيمية التي تشقّ صعيدَ وادي النيل بالطول.

كان الاختلاف الثاني بين قطبي سامي وكلاوديا ينبع من الذات. فسامي ثابت في انفعالاته، قليل الكلام كعارف جوّال، متلونٌ بحكمة ورثها من مجلس جدّه الشيخ سيد، حيث كان يحتكم إليه كل من في القرية، فلا يرجع أحد من بيته الواسع إلاّ وقد أثلج صدره برأي سديد، أو عطّر عصبيّته وتشدّده بهواء جديد.

أمّا كلاوديا، فقد ورثت المغامرة عن أب أمريكي لم تره في سنوات عمرها الخمس والعشرين إلا ثلاث مرّات. عندما يأتي لزيارة ألمانيا كان يتذكّر فجأة أن لديه ابنة طوت ذكراها سنون الغياب، فيذهب ليراها دون ميعاد مسبق ومن غير حساب للزيارة. التقى والدها صدفة في حانة بعقل تملؤه الخمور وتقوده الهلاوس. كانت بالنسبة إليه خطأً جميلاً، وهدية لم يتسلّمها، وعطيّة لم يقدر ثمنها. يدرك نورمان أن كائنًا مثله لا ينبغي له أن يرتبط بأي شخص أو بأي مكان. راقبت أم كلاوديا ابنتها وقد تسلّل إليها من أبيها هذا المرض الخطير. كان نورمان مريضًا بحب المغامرة والتمرّد، وقد ورثت عنه هذه الصفات. كانت الأم تخشى أن يأتي عليها يوم تتركها فيه ابنتها، مثلما فعل والدها من قبل.

بعد أن أنهت دراستها، سافرت كلاوديا في رحلة إلى مصر. أقنعتها المدينةُ ذات الأمواج التي تصلح أن يركبها مغامر مثلها أن

تمكث شهرًا كاملاً حتّى حلول الربيع. عندما وَصَلَتْ مدينة دهب في سيناء الحارّة لأول مرّة في حياتها، شعرت أن أمواج هذا البحر تخبئ لها حكاية شيّقة.. أن رمله الأبيض الناعم ينغز أسفل قدميها ويوشي لها بسرّ لم تستطع حينها أن تحلّ شفرته.. أن حرارة الجوّ وجفافه يصهر جبالاً من الجليد قد تجمّدت في ذاكرتها عبر السنين منذ أن عرف جلدُها صقيعَ الثلوج القارص، وزمهرير لفحاته على خدّها وأذنيها، وداخلها.

حينما كان البرد يقرص روح كلاوديا، كانت شمس الوادي في قرية شارونة تصنع سامي على عين النيل. تطهو صفاته على نار شمسه، وتُتَبِّلُهَا بألوان أجداده القدامى، الذين ألهبتْ رؤوسَهم الشمسُ حتّى تبخّرت منها حضارةٌ عجز الكثيرون عن فكّ طلاسمها إلى يومنا هذا. شيخه كان جَدّه، وطريقته كانت لا تختلف كثيرًا عن طريقة ضفّة النيل الغربي، سهلة، ولكنّها في الوقت ذاته عتيّة على من لا يفهمها.

عندما كبر سامي، كان قرار رحيله لدراسة اللغات والترجمة بجامعة الأزهر ملحًّا، رغم رفض جدّه لهذا الاختيار. تفوّق في فصله حتى تخرّج من قسم دراسة اللغة الألمانية بجدارة. بعدها مات الجدّ تاركًا غصّة في صدره، أراد الشيخ سيد أن يرى حفيده يلتحق بكلية أصول الدين أو الدراسات الإسلامية، حتى إذا مات الشيخ لم يقلق على إرث طريقته من الضياع في ذاكرة السنين.

مات الشيخ، و لم يجد سامي سببًا للعودة إلى شارونة. وقرّر أن يعمل في مجال اللغة الألمانية التي درسها، فاشتغل بالترجمة لعدة

سنوات، وكان يقيم في القاهرة. وسرعان ما مـلّ مـن العمـل في الترجمة، وأخذ يبحث عن شيء جديد، فساقه القدر إلى وظيفة بمرتب كبير في فندق بمدينة دهب.

تردّد كثيرًا في قراره هذه المرّة. تبادر في ذهنه أن الشـيخ سـيد ينظر إليه في غضب ويعنّفه بأبشع الكلمات. كيف حوّلته السنون من مريد يدور في حلقة شيخه وجدّه، إلى شخص مادي يفكر في جمـع المال بشراهة هكذا، بل قد يسافر طلبًا له، ولو علـى حسـاب أي شيء.

لا تأتي التنازلات دفعة واحدة، وإلاّ تحوّلتْ إلى انهيار وسـقوط سريعين يعقبهما ندمٌ وتوبة. إنّما تستدرج الإنسانَ المغرياتُ وتمتصّـه قطرةً قطرة، فيتشبّع بها، وتلتفّ عليه في بطء جميل، حتّـى تغمـره. وكذلك تفعل مع سامي. ترك قرية شارونة وانتقل إلى القاهرة، وهـا هو الآن يفكّر جديًّا في أن يترك القاهرة ويذهب إلى مدينة دهـب. وبعدها سيعتاد الرحيل والتجوال، ولن تملأ عينَه مدينةٌ، ولن يرتاح في ميناء واحد، ولن يستقرّ في يابسة، وستحلّ عليه لعنةُ جـدّه الشـيخ سيّد:

"يا ولدي الزم المكان يأتيك المقام. ولا تغادر فتأكلك الحيرة، وتطاردك الأماكن، ويرفضك الخاص والعام".

بعد أن وجد كلٌّ من سامي وكلاوديا لغتهما المشتركة، أصبح من السهل على قلبيهما أن يقترب أحدهما من الآخر. الشهر الـذي أرادت كلاوديا أن تجعله مدّة إقامتها في مدينة دهب طـال وتمـدّد ليصير سبعين يومًا، خلافًا لما يُعْرَف عن مدّته الطبيعية. تعلُّـم لغـةٍ

جديدةٍ يحتاج إلى شهور، بينما قراءة قلب رجلٍ شرقي تحتاج إلى سنوات وسنوات. زاد عدد مرّات لقاءاتهما لتبادل تعلّم اللغة من مرتين إلى ثلاث مرّات أسبوعيًا، وسرعان ما أصبح لقاؤهما يوميًّا.

لا ينسى سامي حكاية مثيرة قصّتها عليه كلاوديا ذات مرّة. بعد أن انتهيا من تعلّم الكلمات اليوميّة الجديدة، نظرت مباشرة في عينيه وقد لمعت في عمق عينيها نظرةُ فيلسوفٍ يختبرُ ثقافةَ من يحادثه، ثمّ قالتْ:

- "كان هناك رجل في الماضي يسير على ضفّة نهر، فإذا به يرى شخصًا لا يعرفه على الضفة المقابلة. فصاح الرجل مناديًا، يا هذا، يا هذا، كيف وجدتَ الجانب الآخر؟ فيجيبه الرجل من الضفة المقابلة مستغربًا: عجيبٌ جدًّا ما تقوله، ولكنّني ظننت أنك أنت الذي في الجانب الآخر!"..

لم تعقّب كلاوديا على القصّة. انتظرت إجابةً أو ردّ فعل تختبره به، وتحدّد من خلاله خُطّتها المستقبليّة معه. عيناها تتحركان يمنة ويسرى بسرعة لترصد حركةَ عينيه. يخفق قلبها بشدّة وكأنّها تنتظر نتيجة امتحانٍ صعب.

- "جميعنا في الجانب الآخر، لولا أن نعبر!"..

عقّب على القصّة في حكمته ورصانته المعروفتين. راحة وطمأنينة ارتسمتْ على وجه كلاوديا فوْر انتهائه من الكلام. كانت هذه الجملة بمثابة باب فتحه على قلبها، وألقى فيه محبّةً منه.

- "وأنا أريد أن تكون أنت نهري، وضفافي، وزورق رحلتي!"..

قالت كلاوديا في جرأة وشغف. لم يتفاجأ من مشاعرها، وإنّما جرأتها وإقدامها هو ما خلع فؤاده، وطيّر عقله، وأطاح باتّزانه. ساد صمتٌ بينهما لوقت قصير، كان الحديث فيه بابتسامتين ونظرتين وقُبلة.

شاطئ ليكورنا

10 من حزيران 1744م

"لا أعلم كيف أخذتني الأمواج وحملتني وطرحتني خارجها إلى يابسة لم تطأها قدماي من قبل. التصقتْ رمال الشاطئ بوجنتي الملامسة للأرض. كنت أقرب إلى البرزخ من الاستفاقة، وإلى الغيبوبة من الصحوة. أهلوس بأسماء غريبة، وأصرخ بصوت غير مسموع. تلوح أمام ناظري المشوّش بفعل الشمس المحرقة صورةُ جرذٍ كبير يقترب منّي، يريد أن يساعدني. يأمرني أن أتشبّث بشاربه الذي بدا لي مرساة كبيرة تتدلّى من السفينة التي كانت تطاردني بالأمس، وأنا في حيرة من أمري، ولا أدري، هل أتعلّق بشاربه؟ أم أتفلّتُ منه؟

في أحضان رمال الغياب لا ينبغي أن يثق المرء بأي كائن، حتّى وإن كان جرذًا صغيرًا يهدي إلى الطعام، ويصدر صريرًا فينبّه به غافلاً على ظهر سفينة في وحشة البحر.

ساعات من الوهن وأنا أرقد في استسلام تحت شمس حزيران الحارقة وهي تمتصّني على مهل في أرض جديدة دون مقاومة منّي. تمنّيت ساعتها لو أنني لم ألق بنفسي في سفينة راحلة دون تفكير. وظننتُ أنّه لو أنني لم أترك موطني؛ لربّما اهتديت الآن إلى مكانٍ آخر داخل الشام، أو في أي بلد قريب.

لا أعرف إن كانت حبيبة هي التي زرعت فكـــرة الرحيـــل في عقلي عندما صرختْ في وجهي بذعر طالبةً منّي أن أفرّ إلى المنفى. أم أنني كنت قد سبق واتخذتُ قرار الرحيل، قبل أن أعـــرف حبيبـــة، وأضرب زوجها، وألقي بنفسي إلى مجهول البحر.

كانت حبيبة تمسك بيدي بقوّة لا تريد أن تتـــركني أبـــدًا، وفي الوقت ذاته دمعت عيناها، وانتفخ محيّاها من هوْل الموقف. تـــدفعني بعقلها، ويلهث قلبها ورائي. تنصحني بالرحيل، وتنشبُ أظافرهـــا في ظهري، وكأنّها تريد أن تلتصق بـــي إلى الأبد عندما ضمّتني بقوة إلى صدرها.

لماذا استجبتُ لنصيحتها و لم أفكر في العواقب؟ أم أنني وجدت في صراخ فكرتها صدىً في قلبـــي.. وسندًا لـــروايتي عـــن حتميّـــة الرحيل.. وتأكيدًا لهاجسي الأزلي أن هذا البحر يستر عنّـــي أجمـــل الأشياء وأعذبها.

كنت حينها ملقى على الضفّة الأخرى من بحر الغياب.. خـــائر القوى.. مصلوبًا على رمال الآلام.. تحفر الشمس في رأسي.. وتقتلني فكرة واحدة.. فكرة الرجوع...".

نيويورك

20 من يناير 2010م

نظرتْ العجوز بلومٍ إلى سامي، الذي تركها بالأمس دون جواب شافٍ عن أسئلتها. توقّعَتْ منه أن يكون ثرثارًا ليحكي لها عمّا وجده من أمر الخطابات، ولكن خيبة الأمل فاقتْ توقّعاتها. أعدّت له فنجان الشاي الذي يحبّه، ثم جلست أمامه على المنضدة قديمة الطراز دون أن تتكلّم.

تعرف العجوز أن الغربة والوحدة كفيلتان بأن تجعلا قلب سامي أقلّ حرصًا وكتمانًا لأسراره. سيحكي لها قريبًا عن كل شيء. سيبوح بما في صدره بلا شك. ستضحك العجوز من شوقه لمعرفة ردّ فعلها بعد أن يعترف لها بجميع ما يخفيه عنها، ويحرص على كتمانه. تتقن العجوز فنّ استخراج الأسرار من قلوب ضيوفها رغمًا عن أنوفهم، وتحديًّا لرفضهم وكتمانهم.

- "شكرًا يا سيدتي على هذا القدح الشهي من الشاي!"..

قال مجاملاً العجوز دون أن يستطرد أو يرفع عينيه في وجهها، وكأنّه يشكر بائع الجرائد في قطار يهمّ بالتحرك.

- "العفو، ولكنّك ستحكي لي يومًا، وأنا أنتظر"..

أجابته فكتوريا في تحدٍّ عندما كان يعجّل بالانصراف من المطبخ.

ترك المنزل متوجهًا إلى الأرشيف. في الطريق رأى بقعًا صغيرة من المياه التي خلّفها مطرُ الأمس. اغتسلت الطرقات والأعمدة الكهربائية والأشجار وسطوح البيوت. معطفه الذي علّقه في ردهة المنزل كانت لا تزال تتساقط منه بعض قطرات من المطر، والتي لم يجففها ليلٌ طويل قضى نصفه مفتوح العينين يحدّق إلى سقف الحجرة. لم ينفع نفثه لنار الذكرى طوال الليل أن يلهب أجواء الغرفة الباردة، فيجفّف المعطف، مثلما جفّفت صدمتُه في كلاوديا بحورَ رصانته، ومحيطَ فكره.

انعكست صور الأشجار المبتلّة في برك المياه المتجمّعة في طريق عبوره حديقة "بروسبيكت بارك"، التي خبّأتْها "بروكلين" بعيدًا عن زحام مدينة نيويورك الهائجة، التي لا تستريح أبدًا. كان يمرّ بالحديقة التي تلتصق ببيت العجوز. بيت فكتوريا تحاصره بيوتٌ كثيرة في شارع "أوشين آف"؛ إلاّ أن سامي كان يؤمن بأنّ الحديقة العامة التي يطلّ عليها البيت الفيكتوري هي ملك لبيتها دون غيره، وكأنّها ملحق من ممتلكاته.

اللون الأبيض الذي اكتسي به البيت، بزخارفه المعمارية العتيقة وبطوابقه الثلاثة، يبعث على البهجة من الخارج. غير أنه يطوي في داخله امرأةً نال الدهرُ منها، وقتلَتْها الوحدة. مثلما هو الحال مع سامي، في ظاهره تبدو البشاشة والابتسامة والطمأنينة، وفي باطنه بركانٌ من الأسى والعذاب.

بثقل يجرّ قدميه في طريقه عبر الحديقة التي تؤدّي إلى محطّة القطار. بيت فكتوريا يقع على مقربة من محطة قطار أخرى أقرب،

ولكنه فضّل أن يذهب إلى المحطّة التي تليها. لا لشيء إلاّ لأنّه يريد المرور عبْر حديقة "بروسبيكت بارك" الواسعة.

اعتاد سامي مذ كان مريدًا في حلقة جدّه الشيخ سيد أن يجرّب طرقًا جديدة بعيدة عن المعتاد والمألوف والناجز. يبحث بشكل دائم عن مسارات لا تعينه إلاّ على أن يطيل الرحلة، أو أن يقصي الغاية بعيدًا. يحوم من بعيد حول الحمى ولا يقع فيه.

المسجد الصغير الذي كان يعتكف فيه جدّه ويخطب فيه ويقيم فيه وِرْدَه الأسبوعي بعد صلاة الجمعة لا يبتعد كثيرًا عن منزله. غير أنه كان دائمًا ما يختار طريقًا أطول، ليتمكنّ من إطالة السير بمحاذاة النيل. وفي كولونيا كان يحرص على أن يسير من طريق يمرّ بنهر الرايْن في ذهابه وإيابه اليومي إلى الجامعة أثناء دراسته الماجستير. وفي هذه المدينة المزدحمة، راح يبحث عن بحيرة صغيرة تتوسّط حديقةً محاصرةً بالضجيج والزحام والإسمنت، فقط من أجل أن يشبع رغبته وعادته القديمة.

لا يأْبَهُ سامي بالمسافة طالتْ أم قصُرت، طالما أنّ النهر قريب، والعقل طليق، وقداسة الماء حاضرة. وما كان جدّه الشيخ سيد غافلاً عن حالة حفيده ومريده البائس. تأخّر ذات يوم عن حلقة الذكر، فدخل على شيخه في حالة من المراقبة لنظراته.

- "اتأخرت لِيه يا ولدي، ولا المشي على المايه عاجْبَك"!..
- "العفو يا شيخنا، مش هَكَرِّرْهَا تَاني، كنت ماشي فَجُلْت أفُوت أشم هَوَا في الطَرِيج"..

- "طاب خَلّي بالك مِن طريجك يا ولدي، إوْجَصّرُه علشان الرحلة مَطَوِّلْش عليك!"..

- "حاضر يا شِيخْنَا"..

لا يتململ سامي من طول المسافة بين بيت فكتوريا وبين الجامعة، فرغم أن الرحلة إلى المكتبة تستغرق حوالي ساعة، إلاّ أنه كلما تذكّر حكايات أنطوان خير، والخطابات التي تعذّر تسليمها إلى أصحابها منذ ما يزيد عن مائتي عام؛ هانت عليه رحلته، ورضى بحاله.

عندما وصل إلى مكتبه، وجد سامي أن البروفيسور مايكل قد ترك له رسالة يدعوه فيها إلى الطعام، لم يجد مبرّرًا ليعتذر عن تناول الغداء مع الأستاذ، لا سيّما في أسبوعه الأول. كما أنّه أراد أن يقصّ على أستاذه ما وجد من أمر الخطابات. بعدها كان يستعدّ ليغادر المكتب، قبل أن تباغته رسالةٌ إلكترونيةٌ من كلاوديا سمّرته في كرسيّه، فراح يقرأها بجنون.

ليكورنا

حزيران 1744م

"لا أعرف بالضبط كم مِن الوقت قضيت على حالة الفقد هذه، وأنا مُلقى على رمال غريبة في أرض بعيـــدة. لم تســـاعدني عينـــاي المتعبتان بسبب مياه البحر المالحة أن أتعرّف بسهولة على المكان مـــن حولي. يهدهدني هديرُ الموج الهادئ كأمّ حنون تربّت علـــى ظهـــر طفلها الرضيع، وتهزّه بلطف كي ينام. وعندما يثور البحـــر فجـــأة، ويرسل موجةً عالية؛ كانت تغمر مياهُه قدميّ الحافيتين، فتـــوقظني. كأنّ صوت الموج يرحب بـــي، فيساعدني على الهدوء؛ بينما يـــأبى البحرُ ذلك، فيضربني ويطردني من شاطئه.

أُصبت حينها بخيبة أمل وحسرة على أن غادرت رمال شـــاطئ طرابلس، ومدينته الساحرة. إن لم أعص الربّ، المجد لاسمه، وأفعل ما فعلت؛ لم يكن ليطردني رَمْلُهَا، أو ليزجرني بَحْرُهَا. صليّتُ في حضرة العذاب أن يخلّصني الربّ من آثـــامي، ويطـــرحني في هـــذه الأرض الغريبة، أو ينعم عليّ بالمحبّة الكاملة، والحياة الأبديّة إن قبضني علـــى حالي هذا. يا لضيق المدى رغم اتّساع المكان.

عاش أبـــي صيّادًا بسيطًا. كان بحر طرابلس له عونًا، ومصدرًا للرزق. لم يطرده البحر، و لم يزجره؛ لأنّه كان قانعًا مستكينًا. أمّا أنا،

فجرمي أنني كنت طموحًا، وذنبـــي أنني طمعت كثيرًا في جنون ما وراء البحار. لو أنني كنت مثل والدي فحسب.. لو أن الربّ، تقدّس اسمه، قد أراحني من هذا العذاب، وصوّرني على صفة أبـــي..

أيقظتني قطعةٌ من القماش باردة. شعرت بها تنغز جبيني. سرعان ما جفّت، فلمحت بطرف عيني الكليلة طيفًا من بعيد يتّجه نحـــوي سريع الخطى. يرفع عن جبيني قطعة القماش الجافّة، يبلّلها، يعصرها، يعيدها إلى جبيني الملتهب، فتصيبني بالقشعريرة. ظننتُ من ملامحه أنّه ربّما كان عربيًّا مثلي، كانت رؤيتي مشوّشة بسبب الملح الذي أزعج عيني كثيرًا هذا الصباح. تأكدّ لي ظنّي به عندما سمعته يحـــدّث ابنتـــه بلكنة تشبه تلك التي سمعتها في طرابلس من تاجر مصري كان زبونًا لحانة حبيبة.

- "حمد الله على السلامه، انته انكتبلك عمر جديـــد، انتـــه عربـــي، صح؟"..

قال الرجل بصوت دفيء منحني فرصة أن أتخيّل وجهه الذي لم يتّضح لي جيدًا.

- "اي، شكرا إلك يلي انقذت حياتي، ما بعرف أيش كـــان بيصير لو ما حدا نظرني وأنقذني. شكرًا أخي"..

أردتُ أن أسند جسدي المنهار، وأعتدل لكي أصافحه، فقاطعني بيده بسرعة أن أسترخي، وقال لي بوداعة:

- "هَلْبَتْ أعملّك شُوربَه قَوِي دَافْيَه مِنْشَان تِـــدَفّي جُوفَـــك الجُوعَان. لا مواخده القفطان ضيّق عليك شويّه، هـــدومك بَسْ تجف وتبقى تِلْبِسْهَا"..

تحدّث إليّ بلكنته المصرية التي تعلّمتُ منها القليل أثناء حديثي مع التاجر المصري الثري في ميناء طرابلس. من صوته الحنون، تيقّنتُ من أنّه رجل طيّب القلب، وليس لئيمًا مثل ديْدَن التجّار. حدّثت نفسي بأنّه ربّما كان صيّادًا، أو بحّارًا، هاجر إلى هذه البلاد منذ فترة.

بيته الذي بدى لي ضيّقًا يشير إلى أنّ حالته بسيطة، ومعيشته متواضعة. استلقيتُ على حصير من الخوص، ووضعت رأسي على كومة من القماش القديم، محشورة في كيس من الكتّان البالي. خلَتْ الغرفة من أي مقعد، أو منضدة. اكتست الحيطان الخشبية باللون الأسود، الذي خلّفته رطوبة البحر وتساقط الأمطار. بدا السقف ضعيفًا، وقد تسرّبت منه خيوطٌ ذهبيّة لأشعة الشمس المسلّطة على الكوخ الصغير.

لم أسمع غير صوت ابنته. أقنعني استسلامُ نبرات صوتها الضعيف بأنّه صوتٌ لفتاة صغيرة فقدتْ أُمَّها قبل أن تشبع من حنانها. لا ريب أن هذا الكوخ الصغير يفتقد صوتَ امرأةٍ، وينقصه حنان أمّ. تذكرتُ حينها والدتي عندما كنت ألهو بجوارها وهي تجهز لنا الطعام، وتملأ بيتنا غناءً بصوتها العذب. شعرت بالحسرة، وندمت على كلّ وقت أضعته في اللهو خارج الكوخ، أو في التأمّل في مياه البحر بعيدًا عن هالة أمي ومحيطها. تمنّيت حينها لو أنّ الموج يحملني عائدًا، فأرجع والتصق بها، لا تتركني، ولا أتركها. وتناسيت أنه حتّى إن استمع الموج لأمنيتي، فحملني وأعادني إلى كوخنا الصغير في طرابلس؛ فلن أجد مِن أثر أمي سوى صدى لذكرياتٍ، ووجعٍ لفراق.

لا أعرف ما الذي دفع هذا الصيّاد الفقير أن يتحمّل عِبء شخص غريب، جلبه موجُ البحر من مكان غير معروف؟ ما الذي حمله على أن يساعد غريبًا في بلد غريب؟ هل أراد أن يردّ الجميل لشخص قد أنقذه من الغرق يومًا ما عندما قرّر اجتياز البحر وحيدًا، مثلي؟ هل قتله فراق زوجته التي التهمها المرض، وهي ما تزال صغيرة، فشقّ عليه أن يرى شخصًا ضعيفًا، يصارع الموت، فلا ينتفض لينقذه؟ لا رغبة في المساعدة، وإنّما انتقامًا من الموت! دارت الأسئلة في رأسي، كما تدور النجوم في السماء. أرهقني التفكير، وشعرت بدوار، فاستسلمت للنوم.

عندما أفقت، وجدت مضيفي قد وضع أمامي طاجنًا من حساء، وأجبرني على أن أشربه وهو لا يزال ساخنًا، لكي ينتعش قلبي، كما أخبرني.

- "إيه هي حكايتك انته هربان من حاجه، ولا سفينتك طلع عليها القراصنة"..

سألني بعد أن رأى أنني أستطيع الكلام، وتتمكن عيني أن ترى. أخّرتُ غرفة من شربة الحساء التي اغترفتها، ووضعتها في فمي. تظاهرتُ بأنّها ساخنة جدًا، ورحت أحرك شفتيَّ دون داع لذلك، كي أبدو وكأنني أعاني من فرط سخونتها.

- "اي صحيح، الغليون ياللي كنت عليه لاقاه غليون قرصان، فعمل آلة الحرب، ومشي علينا. ومن حكمة الرب إجا على الجميع فرتينة وهَوَا، فما نجت المراكب، وصرنا في البحر غرقانين، فسبحت حتى نجاني الرب على إيدك"..

قلت سريعًا دون أن أنظر إليه حتّى لا يكتشف كذبة عيني.

شكرته كثيرًا أن أنقذني.

مكثت لديه بضعة أيام حتّى تعافيت تمامًا من الحُمّى التي أصابتني خلال رحلتي الطائشة. كان كريمًا وخلوقًا. عرض عليَّ أن أمكث لديه لفترة أطول، وأن أعمل معه في صيد الأسماك، ولكني رفضت بأدب وسألته الرحيل. نصحني أن أذهب إلى الروما، فهي مدينة أكبر ومن الممكن أن أجد فيها عملاً جيدًا. رغم إلحاحه عليّ بالمكوث معه قليلاً في ليكورنا، إلاّ أني تركته وذهبت إلى المدينة الكبيرة. حدّثتُ نفسي: لنا موعد آخر أيها الصيّاد الطيب، سنلتقي حتمًا يوم أردّ لك الجميل.

نيويورك

20 من يناير 2010م

في صومعة البحث ذات الجدران الزجاجية، يجلس سامي. يمسك بإحدى المخطوطات فيقرأها ولا يقرأها. شعورٌ بالحَنَقِ يسكن جوفَه. رغم الصمت المطلق الذي يلفّ الحجرة الصغيرة في أرشيف المكتبة؛ غير أن صدره تحوّل إلى ساحة للقتال. قرأ لكلاوديا رسالتها الثانية هذا الصباح بعد أن ذهب إلى عمله في أرشيف المكتبة. حاول أن يتصفح خطابات من القرن الثامن عشر، غير أن رسالة كلاوديا كانت أشدّ تأثيرًا. منعته كلماتها الحارقة من أن يقرأ أي كلمات غيرها. كتبت له رسالة طويلة، جاء فيها:

"عزيزي سامي

لا أعرف إن كنتَ قد قرأت رسالتي السابقة أم لا. لم أكن أرغب في كتابة الرسالة لولا أنّ خديجة ألحّتْ عليّ. الفتاة تتعلّق بك، ولا تنساك أبدًا، رغم محاولاتي العديدة الفاشلة أن أنسيها صورة أب لا تفارق خيالها الخصب. إن لم تكن ترغب في رؤيتي مرة أخرى، فهذا شأنك ولا بأس، فلك مطلق الحرية فيه بعد أن تركتني ورحلت. ولكن من حق خديجة أن يكون لها أب.

لا أستطيع أن أتخيّل كيف صدّقت ظنّك فيّ بأنّي كذبت عليك. لا أعتب عليك برسالتي هذه، ولن أفعل. كنت أظنّ مقولتك "جميعنا في الجانب الآخر" صادقة. وإلّا، كيف تفسّر انقلابك على حياتنا بعد عشر سنوات؟ فقط لأنّك عرفت أنّي يهودية العرق من ناحية والدتي. لم أكن أبدًا متديّنة، وأنت تعلم هذا. لم تسألني حينها، ولم أجد أنا داعيًا لأن أصارحك بمعلومة لا تعنيني على الإطلاق. والآن تتهمني بأنّي أخفيت عليك هذا "السرّ" منذ البداية.

عندما اختارك قلبي لم تكن تسكنه أيّ من هذه الهواجس التي تصنّف النّاس على أساس الدين أو العرق. قلب إنسان أحبّ قلبًا آخر، وانجذب له دون سبب. لم تفكّر دقّاتُ قلبي، التي كانت تلهث بسرعة كلّما رأت وجهك الخمري، في أن تُبْطِئ أو أن تتراجعَ عن حركتها الخافقة بسبب اعتبارات وتخيّلات فانية.

عندما نظرت إلى عينيك السوداوين لم أرَ سوى إنسان مجرّدٍ ممّا علق به من ماضٍ، أو هويّةٍ، أو صراعات طائفية. أحببتك دون أسباب. تعلّقت بجمال روحك ونقاوة قلبك، ولم تعقني أيّة ظروف أن أحاربَ من أجل هذا الحبّ. ثم مَنْ منّا يختار أجداده أو اسمه أو مكان ولادته؟ ومَن يعرف مكان موته؟ كما كنتَ دائمًا تقول لي. كانت حياتي معك خارج أيّ صراع، لا أعرف لماذا وضعتنا أنت فيه هكذا دون داع. وعلى أيّة حال، لقد ماتت والدتي منذ شهرين.

تحياتي،

كلاوديا".

للمرّة الرابعة أنهى سامي قراءة الرسالة التي جاءته اليوم قبل أن يتركها ويقرّر أن يركّز في عمله اليومي. أراد أن يتغلّب على هاجس الذكرى الذي طوّق الغرفة الزجاجيّة الصغيرة بصورة كلاوديا الرقيقة وهي تحلّق كملاكٍ حوله. دائمًا ما كانت مندفعة، وكذلك كان ردّ فعلها غير متوقع بالمرّة. رسالتها التي باغَتَتْه بَدَتَ فيها أكثر حكمةً ورصانةً وهدوءاً مِن ذي قبل. ربّما كان هذا أيضًا ردّ فعل غير متوقّع من امرأة هجرها زوجُها منذ عام تقريبًا، وانقطعت أخباره تمامًا.

لن ينسى يوم عرف أنّ أمها كانت على متن طائرة قادمة من تل أبيب إلى مطار فرانكفورت. سمعها وهي تتحدّث أمامه في الهاتف مع والدتها التي أرادت أن تستقبلها في المطار بعد أن تأخرّت رحلتها. كانت تُمْلِي عليها رقم الرحلة وميعاد الوصول. كان اسم "تل أبيب" هو كل ما برز مما ردّدت كلاوديا خلف والدتها وهي تسجّل تفاصيل الرحلة في دفترها. تمسك بسماعة هاتفها المحمول بكلّ ثقة، وتكتب ما أملته عليها أمها، وابتسامة صغيرة هادئة وَجَّهَتْهَا صوب سامي، الذي بدت عليه ملامحُ استغراب، حاول جاهدًا أن يكتمها، دون جدوى. أراد أن يتأكّد من شكّه، فسألها في نبرة متقطّعة:

- "ماذا حدث يا كلاوديا، أخبريني، هل والدتك بخير؟"..
- "لا تقلق عزيزي، فقط الرحلة القادمة من تل أبيب تأخّرت هذه المرة، وسوف أذهب لاستقبال والدتي من المطار بالسيارة. هل تريد المجيء؟"..

لم يبدُ على وجهها أي انفعال أو ارتباك أو محاولة للكذب. قالتها وكأنّها تتحدث عن أي مدينة أخرى. "تل أبيب!!".

- "هل تذهب والدتك كثيرًا لزيارة تل أبيب؟".
- "ليس دائمًا. عندما ترغب في زيارة خالتي فحسب".
- "هل تعمل خالتك هناك؟".
- "لا يا عزيزي، إنها تقيم هناك منذ أربعين عامًا. وكانت تأتي لتزورنا في الماضي، ولكنّها تعاني من مرض السرطان منذ عامين، ولذلك تذهب أمي لزيارتها كل عام مرة أو مرتين".
- "هل هذا يعني أن أمك يهودية يا كلاوديا؟".
- "نعم. هل هناك خطب ما في ذلك يا سامي؟".
- "لكنّك لم تخبريني بهذا الشيء من قبل!".
- "لم أرَ أنها معلومة تستحق الذكر. أمّي يهودية العرق، وأبي كان مسيحيَّ العرق، ولم يربطهما أيّ شيء لا بالدين اليهودي ولا المسيحي. ولكنّهما تزوجا في نزوة عابرة وأنجباني. ثمّ إنني لا أجد حرجًا في ذلك البتّة".
- "ولا تجدين حرجًا في أنّك أخفيت سرًّا؟".
- "أيّ سرٍّ تتحدّث عنه؟ إنْ كان سرًّا كما تقول فمَنَ ذا الذي أخبرك عنه غيري؟ لم تكن هنالك مناسَبة كي أحكي لك عن عائلة لا أشعر بالانتماء إليها. أنا ابنة نزوة عابرة قلت لك منذ قليل. وأعتبر نفسي مواطنة العالم، ولا يمكن أن تقيّدني حدودٌ أو قوميّات أو عرقيّات. فأنا مواطنة وأخي في المواطنة هو الإنسان أينما وُجد وكيفما يعيش. وأنت وابنتنا خديجة كل حياتي".

- "كلاوديا، لا تفعلي ذلك مجددًا. لا أسألك عن انتماءك، أو عن معارفك الفلسفية، أو منطقك في الحياة الآن. كل ما أريد أن أقوله ببساطة أنك أخفيت عنّي شيئًا خطيرًا".
- "وأنا أقول لك ببساطة أني لم أخفِكَ سرًّا. ما كنت لأظنّ بك ظنّ السوء إن أبلغتني يومًا بأن أباك من الهندوس، أو الزرادشت، أو حتّى من عبدة الشيطان. لا يهمّني إن كان ينحدر من أُسرة يهوديّة، أو مسيحيّة، أو مسلمة، أو ملحدة. لم أسألك عن أهلك، ولن أفعل. فلماذا تلومني في كذبة لم أكذبها، وفي ذنبٍ لم أقترفه؟".
- "بل كذبت لكي أتزوج منك منذ البداية. وكنتِ تعلمين أني لم أكن لأوافق أبدًا أن أتزوج من يهوديّة، أليس هذا صحيحًا؟".
- "سامي، إنك تتفوّه بكلام غير موزون، مدعاته غضبك غير المبرّر. الأفضل لكلينا أن نصمت الآن ونتحدث لاحقًا بعد أن نهدأ".

واصل سامي حديثه في انفعال كبير لم تشهده كلاوديا من قبل:

- "كلاوديا، لقد أخبرتك مرارًا أنني رجل شرقي، تربّيت ونشأت في محيط اجتماعي وظروف ثقافية غير التي عشت أنت في داخلها. والأمر في عيني جدّ خطير. ولا تحاولي أن تقلّلي من أهمية هذا الأمر، فهو أكبر من تحمّلي، وأقوى من تعقّلي. وحقًّا يجب أن نصمت الآن، لا لنهدأ، ولكن ليراجع كل واحد منّا نفسه وحساباته".

ترك المنزل بعد أن ذهب إلى غرفة نوم خديجة، فقبّلها في مفرق شعرها، ودموع حارقة خضّلت عينيه. احتضنته ابنته ذات التسعة أعوام وعيناها مُغمَّضَتَانِ، تتعلّق في رقبته لا تريد أن تتركها. تمنّى لحظتها أن لو يدوم هذا العناق حتى يوم الدين.

نيويورك

ظهيرة 20 من يناير 2010م

- "شكرًا لك يا سامي على هذه المعلومات القيّمة، وآمل أن تكتب مقالاً عن اكتشافك لهذه الخطابات الشيّقة"..

قال البروفيسور مايكل. بعدها أخذ رشفة من قهوة الإسبريسو التي لا يتخلّى عنها بعد وجبة الغداء. في مقهى بعيد عن صخب الجامعة، جلس سامي صحبة أستاذه الأمريكي في مكان يكتظّ بالمثقفين والقرّاء. لم يكن مقهى بالمعنى الذي عرفه في طفولته بقرية شارونة، ولا الذي اعتاد على رؤيته في خان الخليلي بالقاهرة، و لم يشبه كذلك مقهى لوكاس المشهور في ألمانيا عندما كان يرتاده برفقة أصحابه. كان المقهى عبارة عن مكتبة كبيرة، جميع روّادها من عشّاق الكتب والقهوة. يأخذ الواحد منهم فنجان قهوته بعد أن يكون قد اختار كتابًا وموضعًا مناسبًا لقراءته.

لا يضيّع البروفيسور مايكل لحظة في عمره دون أن يعمل، وحتّى في ساعة القيلولة بعد وجبة الغداء كان يأتي إلى ذلك المقهى، أو بالأحرى المكتبة التي تقدّم القهوة لروّادها، فيطالع فيها من علوم الفلسفة والآداب والمنطق ما يغذي روحه، ويلهم فكره، ويقيم به منطقه.

- "وكيف أحوال المعيشة في نيويورك؟ هل تدبّرت أمرك؟".

سأل مايكل وقد أنهى قهوته السريعة فيما علّق حاجبيه في أعلى نقطة فوق جبينه المجعّد، منتظرًا جوابًا.

- "ما زلت أنتظر مكان إقامة دائمًا، أقيم بصورة مؤقتة في حجرة جيّدة في بروكلين، وأنتظر حتى تدبّر لي ديانا أمرَ السكن".

قال سامي مضطربًا، يحاول كتمان شعوره بأنّه لا يعرف إن كان سيستمر في هذا المكان الجميل، أم لا!

- "حسنًا، هل تريد أن تناقشني في شيء آخر؟".

- "لا، أشكرك".

غادر مايكل مقهى الكتب. ترك سامي بمفرده قليلاً كما طلب منه. شعر حينها بالضجر وبضيق المكان رغم اتساع المقهى. طلب فنجانًا من القهوة. شرب نصفه قبل أن يملّ من هدوء الناس من حوله ومن صمتهم البارد، فغادر على الفور ليجد نفسه في وسط شارع مزدحم بالمارّة والسيارات والأنفاس والروائح والألوان المختلفة.

كان الجو خارج المقهى باردًا للغاية. السماء رمادية اللَّوْنِ مائلةً إلى السواد. في الشارع بدا الناس كتلة واحدة متلاصقة، رغم أن ألوانهم وروائحهم وملابسهم متباينة. عند هذه اللحظة، تذكّر رسالة كلاوديا الأخيرة له، كما تذكّر آخر مشادّة وقعت بينهما عن فكرة "مواطن العالم".

مشى يتلكأ في شوارع وطرقات المدينة المكتظّة بوجوه كثيرة، لا تشبهه، ولا يشبهها، ولا يجمع بينه وبينها غير ضوء السماء الرمادي

الخافت، الذي سقط عليه وعليها دون أن يفرق بين أبيض وأسود، بين طويل وقصير، بين صالح وطالح، وبين مؤمن وملحد. حينها شعر أن كلاوديا ربّما كانت على حق فيما تعتقد.

اعتاد سامي أن يتجوّل في كلّ مدينة جديدة دون مقصد محدد. في الماضي، زار أماكن وبلدانًا كثيرة في أوروبا وغيرها، ولم تكن هناك أي متعة أقرب إلى قلبه من التسكّع في شوارع مدينة جديدة دون وجهة أو هدف أو غاية. كان يفضّل منها المدن الصغيرة التي يقسمها نهرٌ صغيرٌ إلى شطرين. يسير بالساعات فيها ولا يقنعه أيّ شيء بالعودة إلى محلّ إقامته المؤقت إلاّ عندما يرى علامةً أو مَعْلَمًا بارزًا في شوارعها تكررتْ رؤيته له ثلاث أو أربع مرّات على الأقل. بيْد أن الأمر مختلفٌ في نيويورك، وإن ترك نفسه هائمًا هكذا من غير وجهة، فلربّما تعذّر عليه الرجوع.

بطبيعته لا يحبّ المدنَ الكبيرة. ربّما لأن قرية شارونة في صعيد مصر لم يتجاوز محيطها بضع عشرات من الكيلومترات، وعلى الرغم من ذلك فقد شهدت أُولَى خطواته المتعثّرة، وهي التي بسطت له طينَ أرضها ليركض فيها مع أطفال الحي من جلدته، وهي التي زرعته شتلة صغيرة في حضن وادي النيل الدفيء.

في كولونيا كان الأمر مختلفًا. كثيرًا ما تسكّع برفقة كلاوديا على ضفاف نهر الراين. قفلٌ صغير أحمر اللون علّقَتْه بمساعدة سامي في السياج الحديدي العتيق لجسر هوهنزولرن كما يفعل العشّاق.

على جسر نهر الراين الخالد أمسك بيدها المطبقة على مفتاح قفلهما المعلّق في السياج، وبحركة سريعة ألقيا المفتاح سويًّا وتابعاه في

ترقّب حتى ابتلعه النهر الجاري. مرّ على زواجهما شهران قبل أن يفكرا في زيارة الكاتدرائية الكبيرة، وعندما تراءت لهما الأقفال مصفوفة على جدار الجسر، خطر ببالهما أن يثقا في قفلٍ حديدي ليحفظ حبّهما، وأَمِنَا كذلك مكرَ مفتاح، غاص في مياه نهر عميق، أنه لن يجد أبدًا طريقًا بعد غرقه كي يعود ويفتح قفلَ حبّهما. لا ريب أنّ المفتاح نجا بنفسه من الغرق، وأقسَمَ أن يعود بعد عشرة أعوام لينتقم منه ومن زوجته. كيف يلقيان به في النهر دون رحمة ولا رأفة بقطعة من حديدٍ ليس لها وظيفة غير أن تفتح قفلاً واحدًا وتغلقه؟ عاد المفتاحُ ليفتح بابًا من العذاب بين سامي وكلاوديا.

عندما شعر أن حجم كتلة الناس المتراصّة في شوارع نيويورك قد قلّ عن المعتاد، توقّف سامي عن السير، وأدرك أنّ عليه البحث عن طريق العودة إلى المكتبة لمتابعة العمل على الخطابات.

عندما وصل إلى حجرة الأرشيف، قرّر أن يطلّع قليلاً على الخطابات الأخرى. كانت الرسائل في مجملها تشمل موضوعات تجارية، وأسماء بضائع لم تعد معروفة في العصر الحالي، وأماكن بدت أسماؤها غريبة بعض الشيء، وأنواع ملابس لم يعد يرتديها إنسان، وروائح بهارات لمّا يختبرها أنفه. جميعها كان محمولاً على سفينة كبيرة لم تصل إلى مقصدها. كان هناك كذلك خطاب من راهب كلداني في كنيسة "روما" أراد أن يرسله ليردّ به على خبر وفاة أمّه، جاء فيه:

"إلى حضرة وجناب الاخ العزيز المكرم رافاييل، صانته عناية الربانيه آمين. من بعد بلوغ السلام التام، بمزيد العز والاكرام، والمحبة الباقية على الدوام، إلى مَن عنده القلب مع الخاطر دايم مدام، إلى

جناب الاخ العزيز، الذهب الخالص الابريز، صاحب العقل والتمييز، أعنى به الذي اسمه اعلاه، حفظه الرب من كل آفه وبليه، أرضيه وسماويه، بشفاعة السيده الورديه، مريم البثول النقيه، والدة كلمة الأزليه، ومار انطونيوس كوكب البريه، وزمرة القديسين الذين صاروا خالين من الخطيه، شفاعتهم وبركاتهم تحرس وتحفظ الدي اسمه أعلاه، آمين.

وبعده، وصل مكتوبك الينا، قريناه وفهمنا مضمونهُ، وشكرنا الباري تعالى على صحة سلامتك، التي هي عندنا غاية القصد والمراد، وخصوصًا لما سمعنا عن أخبار السود، التي ذكرتموها لنا في مكتوبكم، الدي في وقتما قريت المكتوب تعتمت عيوني، وانحنى ظهري، وانكسر قلبي، وصرت مثل المجنون الدي يضيع عقلهُ، ما بقالي نطق ولفظ حتى أتكلم، وبقيت افتكر هلشيء الدي هو بعيد عن العقل صحيح أم كذب. كيف يمكن هذا؟ الله تعالى المجد لاسمهُ غضب علينا في هلْسنه؟ المره دي ما خلاني في هلْبيت الدي كان شبه بيت ابونا يعقوب ونسلهُ... ما بقالنا غير أخ وأخت في بيت هلقدر كان فيه اخوه وقرايب كتير فليكن اسم الرب مباركًا.

لكن كيف اعمل؟ ماذا ابكي وماذا أقول وماذا أكتب؟ آه وآه يا حسرتي ويا حيرتي الدي ماكنت مستاهل ومستحق حتى أقعد جانب رأس والدتي وأخوتي حتى اشتم روايحهم وأشبع من تطليعهم؟ كيف بقيت أعيش بعدهم؟ يا ريت أنزل التراب قبلهم؟ كيف يضحك وجهي وينفرح قلبي بعد موت والدتي وحبيبتي وضو عيني وحمامتي التي طارت من يدي مثل النسر؟ من بقا يعزيني بعدها ومن بقا يسليني

بعدها؟ لكن ما بقا فايده من كلام. هذه ارادة الله المجد لاسمه لازم يكون عندنا صبر متل صبر أيوب الصديق، الذي مات لهُ جمله عشرة بنين هو كان يمجد ويسبح اسم الله تعالى".

لم يكمل سامي رسالة الشمّاس يوسف بن جبرائيل الكلداني. تداخلت السطور التي كُتِبَتْ بخطّ عربي جميل بعضها ببعض عندما اغرورقت عينه بالدموع، وخشى أن تُخَضِّلَ دموعُه الورقَ القديمَ فتفسده. كانت كلمات يوسف الكلداني صادقة لأنها اخترقت قلبه. أي وحشة هذه التي اعترت قلب ذلك المسكين؟ اغترب ليعتكف في كنيسة روما، ثم فقد أمه و لم يعلم بدفنها حتى أتاه خطاب يخبره بالفاجعة. ماذا لو أن الخطاب الذي أُرسل إليه ضاع في الطريق و لم يصل إليه مثلما هو الحال مع السفينة التي لم تصل يومًا إلى وجهتها؟ هل يفعل يوسف الكلداني مثلما فعل أنطوان خير، فيترك حياة الرهبنة، ويهيم على وجهه، وينتهي به الحال تائهًا من نفسه يفتّش عنها في الطرقات، وفي وجوه الناس الغريبة، وفي منفاه.

أغلق سامي الخطاب وشعر برغبة في إكمال قراءته لمذكرات أنطوان خير.

روما

أيلول 1744م

شهران من التجوال في شوارع الروما، أبحث عن عمل ولا أجد. قضيت معظم الوقت في الشوارع التي امتلأت بوجوه تراقبني كلّما مررت من أمامها، أو هكذا تراءى لي. كنت محظوظًا أن وصلت إلى هذه المدينة حين كان فصل الصيف في أوجه. وكان ينبغي عليّ أن أقلق، بعد انقضاء الصيف، مِنْ صقيع الخريف الذي بدأ في السريان في أطرافي المتعبة، لا سيّما في آخر الليل عندما كنت أفترش الأرض الحجرية برداء مهترئ، لا يسترني عن نجوم سماء الروما غير جوال مهلهل وجدته قرب المرفأ في طريق دخولي إلى المدينة. صادقت الكلاب والحيوانات الأليفة وتعلّمت منها كيف أملأ بطني بأقل طعام.

كلّما ذهبتُ إلى حانوت أو مطعم أو مشغل لأطلب رزقًا، فشلت في أن أقنع صاحب العمل بلسان عجز عن التعبير، وبعبارة خالية من الكلام. شعرت حينها أنه ليس شاطِئ ليكورنا وحده الذي كان يرفضني، بل إنّ هذه الأرض ملعونة في مجملها، لا تتّسع لغريب شرّدته أمواجُ البحر، مثلي. بعد فترة وجيزة حلّ الشتاء، وكان شتاء هذه البلدة أشدَّ بردًا ممّا عرفت من قبل. وعلى كلّ حال لم أكن مستعدًّا له في حالتي هذه.

فكّرت في الرجوع إلى الصيّاد المصري في ليكورنا، فلم يحملني جسدي الهزيل على الرحلة، و لم أجد مالاً أدفعه لأي سفينة أو مركب يبحر صوبها. عندما أتيت إلى الروما، كان الصياد المصري هو من دسّني على أحد المراكب الكبيرة، التي كان يعمل فيها ابن عمه، ولا أتذكّر الآن كيف أصل إليه مرة أخرى. يأتينا النسيان من حيث لا ندرى.

أحسست بالنهاية قادمة لا محالة. دعوت الربّ أن يغفر لي. استسلمت بعدها للأيّام، وانتظرت فنائي عن هذا العالم الموحش. هذا هو جزاء حماقتي وإصراري على الرحيل، فالجزاء من جنس العمل، سأرحل عن العالم بأسره.

تدهورتْ حالتي ورقدت لأكثر من يومين في مكاني لا أستطيع الحركة. كنت أهذي بالعربية وببعض الكلمات الإيطالية التي تعلّمتها سماعًا من أفواه العامة ومن أرباب العمل الذين رفضوني. ارتفع صوتي بالصراخ، لا أدرى أمِنَ الألم الذي حلّ بصدري، أَمْ من جنونٍ مسّ عقلي. انتفض جسدي الهزيل، وكان ارتجاجه أشدَّ وقعًا من حالتي عندما كنت أعتلي حبيبة في ليالي طرابلس المقمرة. عندها شعرت بيد تربّت على صدري، وسمعت من بعيد مزيجًا من كلمات عربية وإيطالية معًا كانت بصوت جعفر الإبراهيمي.

عندما رآني جعفر على حالتي السيئة هذه، ملقى في أحد ساحات الروما، أصارع الموت وأصرخ من التوجّع؛ أسرع إليّ وحملني إلى غرفة متواضعة يستأجرها بعيدًا عن صخب المدينة. اكترى عربةً يجرّها بغلان، سارت بنا تتهادى فوق الأحجار الصغيرة

المرصوصة بعناية في شوارع الروما المعبّدة. تمايلتْ العربة يمنة ويسرة كلما انعطف السائق الإفرنجي ليدخل في زقاق أو شارع جانبي. آواني جعفر في حجرته من عذاب الفاقة والتسوّل والمرض، وانتشلني من الضياع في المجهول.

بعد أسبوع أخبرني أنه تدبّر لي عملاً في مطبخ لمطعم صغير بالقرب من ميدان الشعب كما ترجمه لي جعفر من الإيطالية: "بياتسا ديل بوبلو". فرحت وشكرت الشاب المكافح الذي أتى من ليبيا في مقتبل العمر ليبحث عن عمل.

لم يأتِ جعفر إلى الروما هربًا من ماض مهين، مثلي. لم يجبره الموجُ على مغادرة موطنه خلسة في الليل، مثلما فعلت. عيناه البنيّتان الواسعتان، وشعره المرسل المائل للحمرة، تشير إلى أنّه ربّما ينحدر من بلاد الروم. وربّما كان هذا هو السبب الجوهري وراء سعيه للعمل والعيش هنا في هذه الديار.

بدا جعفر لي وكأنّه ينتمي إلى المكان وينسجم معه، كأنّه عاش هنا منذ عقود مضتْ، رغم أن عمر وجوده على هذه اليابسة لم يتجاوز العام، كما أخبرني. أتقنَ اللغة الإيطالية بسرعة، وراح يتحدّث بها مع من حوله بلسان طَلِق لم يخلُ مِنْ بعض الألفاظ العربيّة. أحببت فيه رجاحة عقله، رغم حداثة سنّه. أُعجبت بخطّته التي يسير عليها ويحذوها كأنّه يقرأ سيرة أحد القديّسين العظماء، فيسلكها من غير تردّد أو حيد. كان عصاميًّا يأكل القليل ويدّخر الكثير في سعيه الدائم لإحراز مبتغاه، وكأنّه راهب في قلاّية دائمة تصاحبه أينما حلّ أو ارتحل. في الصباح يعمل في مطعم، وفي المساء

في حانوت لبيع التحف والتماثيل، حتّى إذا هبط الظلام على أرض الروما عاد من فوره إلى حجرته الصغيرة ماشيًا على قدميه النحيلين. يصلي خلسة بين أوقات العمل صلواته الخمس، ولا ينام حتّى يقرأ بضع آيات من القرآن. تعلّمت منه حبّ العمل وتقديس الهمّة، وتمنيت أن أصير مثله يومًا ما.

عندما أخذني جعفر في اليوم الأول إلى المطعم الصغير كي أبدأ عملي الجديد، شعرت كأنّي أرى البلدة الساحرة لأوّل مرّة. توسّع بُؤْبُؤُ عيني عن آخره، ولم يتوقّف فمي عن إبداء الدهشة والعجب.

مشينا سويًا أنا وجعفر في شوارع نظيفة ومعبّدة بأحجار لمعت كصفاء سماء الروما يوم طلعت فيه شمس الشتاء، يلاطفها القليل من السحب التي مرّت فوق رؤوسنا في هوادة. أحسست بأنني صرت أتنفّس من جديد، واتّسع صدري النحيل ليستنشق أكبر قدر من الهواء النقي، حتى خشيتُ عليه أن يتمدّد فلا أستطيع ضمّه بزفير مناسب. كلّما مررنا بتحفة فنّية أخّاذة، ظهر بعدها بقليل ما هو أقوى منها خطفًا لقلبي، وأبهر منها أسرًا لعيني. كنت أمشي مشدودًا ومنفعلاً من جمال ما رأيت، ولم يبدُ جعفر متحمّسًا مثلي، ولم يَظْهَر على وجهه الأصفر أي استغراب أو دهشة.

عندما مررنا بالساحة الكبيرة بياتسا ديل بوبلو رأيت جمعًا غفيرًا من الناس يتوسّط الميدان، ويتأمّل معالم المدينة عن قرب. سألت جعفر عن أمرهم، فأخبرني أنّهم زوّار المدينة ومريدوها، يتأمّلون معالمها ويسيحون فيها، ثم يغادرونها إلى بلدة أخرى ليفعلوا فيها مثل ما فعلوا هنا. هم قوم أثرياء وأمراء من عِلْية القوم، قدموا من إنكلترا ومن

الروسيا ومن إسبانيا ينشدون الفنّ والجمال في بلاد الروما وبلاد الفرنساوية. اكتظّت بهم شوارع الروما وميادينها، وفاضت بهم متاحفها وحدائقها. من أراد النساء وجد، ومن أراد الموسيقى والآلات الجديدة وجد، ومن أراد الصور الكبيرة والتماثيل المنحوتة بإبداع وجمال وجد. رأيت ديار الروما متحفًا كبيرًا يضمّ في كلّ ركن شيئًا جديدًا ونادرًا.

انتصب في وسط ميدان بياتسا ديل بوبلو عمود طويل من الحجر، رأسه مدبب وقد نُحتتْ عليه أشكالٌ لطيور وصورٌ لخلائق برؤوس حيوانات. عندما نظرت إلى جعفر وقد بدا في عيني العجبُ مما رأيت، أسرع بجوابه أنه رأى مثلها في مصر قبل أن يقرّر الرحيل إلى ليكورنا. لم يخبرني تفاصيل أكثر من هذه، ولم أسأله المزيد. اكتفيت بالتحديق إليه في صمت.

اجتزنا الميدان الصاخب، فاجتزت معه ذهولي ودهشتي. انعطفنا يسارًا في شارع أصغر، وسرنا حتّى وصلنا إلى نهر التَيْبَر العتيق. وهناك كان مطعم الخواجة براتو برطولوميوس ينتظرني كي أبدأ حياة جديدة.

كان المطعم يقدّم الشطائر الساخنة، وكذلك بعض وجبات السمك. كنت مجرد عامل بسيط أساعد الطبّاخ في تقشير الخضروات، وفي ضرب العجين، وتنظيف المطبخ. وفي المساء عندما تخفّ الحركة في المطعم المتواضع، أنظّف الكراسي والموائد من آثار الطعام والنبيذ. حفظت طريق عودتي إلى بيت صديقي جعفر مثلما كنت أحفظ شعب طرابلس وأزقّتها. حفظت الطرقات وحفظتني،

وفهمت الوجوه والنظرات فلم تعد تراقبني كلما مررت ذهابًا وإيابًا بين عملي قرب نهر التيبر وبين الحجرة التي أشارك فيها جعفر في حضن بيت بعيد عن ضجر المدينة.

أتقنت بسرعة أسماء الخضروات والفاكهة، وأسماء الطعام، وأنواع الشطائر باللغة الطلياني، مما قرّبني من الطباخ، وأصبح يستأنس بي، ويعلّمني كيف أقدم الطلبات للزبائن.

كان عملاً رتيبًا، غير أني وجدت فيه مكانًا أفضل من النوم في الطرقات والتسكّع في الحارات، في انتظار طويل لليل حتى ينقضي. ليل الغرباء يطول. كانت الروما أوّل بقعة بعد طرابلس تفتح لي بابًا أعرج فيه إلى الخلاص من عذاب الغياب، وأتنسّم من خلاله عبير الحلم لما هو آت.

نيويورك

مساء 20 من يناير 2010م

تجلس فكتوريا على أريكتها بسكينة وتغمس يدها اليمنى في فراء "فيفي"، هرّتها السياميّة البيضاء. يدها اليسرى تئنّ تحت خدّها الشاحب، وتزيده تجاعيد فوق تجاعيده. أسطوانة من موسيقى الجاز تعود إلى فترة السبعينيات غلّفت محيط الحجرة الواسع، والذي خلا من أي صوت سوى خرخرة فيفي وهي تتلوّى في متعة تحت يد العجوز الخشنة. فيفي هي الهرّة الثالثة التي أقامت في نزل العجوز خلال مدّة لا تتعدّى بضع سنين. تأتي الهررة إلى بيتها باختيارها، وترحل باختيارها، دون إلحاح من العجوز عليها بالبقاء، أو طلبًا منها بالرحيل.

لوحة من العصر الباروكي علّقتها على الحائط الأبيض، الذي تستند عليه الأريكة، وتقبع في كنفه العجوز. كأس من النبيذ الأحمر وضعتها أمامها على منضدة صغيرة بيضوية الشكل. في الغالب لن تشربها في ليلتها هذه، كعادتها. ليس للشراب متعة في حدّ ذاته، إنما تأتي متعته من الصحبة والمؤانسة بالأصحاب والأصدقاء.

ذكريات عديدة طارت من زمنٍ سحيقٍ وحامتْ حول دائرة العجوز الداكنة. تتداخل الذكريات مع الأمواج الصوتيّة المنبعثة من

جهاز مشغل الأسطوانات العتيق. جاءت الموجات تباعًا تحمل صورًا باهتة: شبابُ امرأة.. قُبلةٌ صادقة من زوج رَحَل.. صراخُ طفلة صغيرة يتوقف بعد أن يمسك فمها بثدي يافع لم تكن السنون قد شوّهت بياضه بعد وأكسبته سمرة وذبولاً.. يدٌ كانت تربت بوداعة ورفق ولين.. يدٌ أخرى ضربتْ وعنّفتْ وطردتْ.. يدٌ صافحت وصفحت.. عينٌ دمعت ثم اغرورقت على فراق حبيب.. ثم انبعثتْ موجةٌ صوتيّة طويلة ورتيبة، تحمل صورًا متكرّرة ومتشابهة لعجوز تنتظر نحبها، بعد أن فارقها ورحل عنها جميع من كان يحيطها حبًّا وصداقة وقربًا، حتّى ظنّت فكتوريا أنّه لم يتبقَ في صَفّ انتظار الأجل إلاّ هي. تعيش ولا تعيش. أيّ ألم أقوى من انتظار الموت؟

فكّرت أن تتعجّل دورها في الانتظار، فبحثت كثيرًا عن طريقة غير شرعية كي تقفز إلى موضع متقدم من الصف حتّى يقرّبها بسرعة من النهاية، غير أن جميع محاولاتها باءت بالفشل. قرّرت بعدها أن تنتظر دورها بخضوع دون مقاومة.

صوت مفتاح الباب من الخارج قطع موجات الذكرى التي غاصت فيها العجوز وأسلمت لها كل جوارحها. انتبهت فجأة كمن أيقظه صوت انفجارٍ بالقرب من منزله. فزعت كذلك فيفي، لا بسبب صوت المفتاح، وإنّما بسبب اضطراب يد العجوز التي توقفت عن المداعبة. نظرت كلتاهما ناحية الباب في ترقّب وحذر، ترصد عيونهما خطوات مَنْ فتح لتوّه بابَ بيتهما، وقطع رحلة الذكريات عن العجوز، واستعجل حصّة المداعبة عن فيفي. كادت العجوز أن تسأل بصوت عالٍ مَنْ بالباب، وكذلك همّت فيفي بأن تزجر في

ضجر وبدأ ظهرها في التقوّس بعض الشيء؛ قبل أن يطـــلّ عليهمـــا سامي من باب غرفة المعيشة الملاصقة لباب المنزل. تهلّل وجه العجوز بابتسامة مصطنعة، واستمرّت فيفي بزمجرتها المتصاعدة في حذر.

- "أهلاً سامي، كيف كان يومك؟".

- "بخير يا سيدتي، كل شيء على ما يرام؟".

قال وبدا في نبرة صوته شجنٌ لم تنطلي على العجـــوز المحنّكـــة محاولته لإخفائه.

- "هل كل شيء على ما يرام حقًا؟".

سألت العجوز، وقد لاح على وجهها ابتسامة ثقة، مثـــل أب يحاور ابنه الصغير حول مشكلة في يومه الدراسي، يعرفها الأب مـــن المدرسة، ويحاول الابن أن يخفيها عن والده.

- "فقط بعض متاعب في العمل ليس إلاّ".

عقّب بسرعة دون تفكير لكي يهرب من الحفرة التي جرّته إليها العجوز. ذكّرته نظراتها الباسمة الواثقة بنظرات جدّه الشيخ سيد. غير أن الشيخ سيد لم يكن يلاحقه بالكلمات أو بالسؤال أو بالعُتْبى. كان يكفيه أن ينظر إلى عيني سامي مباشرة نظرة طويلة تحكي كل شـــيء وتسأل جميع الأسئلة دون كلام. فيبوح الحفيد لجده على الفور بكل صغيرة وكبيرة دون أدنى مقاومة منه.

زادت ابتسامة العجوز واتّسعت عندما سمِعَـــت هـــذا الكـــلام المختصر الفاضح. ضاقت عيناها الزرقاوان وارتفع حاجباها الدقيقان وهي تردّ عليه تحيته قبل أن يتركها في اضطراب ليصعد السلم الدائري الذي توسّط المنزل.

من نافذة الغرفة الكبيرة رأى سامي مجموعة من الفتيان والفتيات يتسكّعون في الشارع الطويل الممتدّ بطول حديقة بروسبيكت بارك. أوشكت الساعة على الثانية صباحًا، وخلا الشارع من أيّ صوت غير أصوات الضحكات العالية والصياح والضجّة التي أحدثتها مجموعة الشباب الهائجة. بدا من مظهرهم أنّهم في المرحلة الجامعية. ذكّره مرحُهم وضحكاتهم وجنونُهم بنفسه قبل عشر سنوات عندما كان لا يزال شابًا يافعًا في رحلته الأولى إلى الغرب، يتعلّم لغةً جديدة بعيدة كلّ البعد عن لغته الأم.

قبل عشر سنوات التحق بحصص التأهيل لاجتياز اختبار TestDaf إتقان اللغة الألمانية. انقضى منها تسعون يومًا تعرّف فيها إلى عدد كبير من الطلبة، فيهم العرب، والبرتغاليّون، والبرازيليون، والأفارقة. لغات كثيرة وثقافات متعدّدة تلاقت في غرفة واحدة، يدرس أصحابها لغة وسيطة، علّها تربط بينهم فيما بعد. بعد إلحاح دام أسبوعين، قَبِلَ سامي اقتراح صديقه البرازيلي ردريجو أن يذهب معه إلى الديسكو.

في مدخل قاعة الديسكو كان يقف رجل مفتول العضلات، وقد لمع رأسه الحليق، مثلما لمعت كريستالات الثلج المتراكمة خارج المبنى. وقف متحمّسًا في طابور طويل ينتظر دوره.

كانت الساعة تقارب الثانية صباحًا عندما أُذن له أخيرًا أن ينال ختم الدخول لساحة الرقص. هابه منظر الجمع الغفير وقد فاحت من بعيد رائحة الخمر من أفواه بعضهم. يتكوّن الديسكو من ثلاثة طوابق، في كل طابق موسيقى مختلفة. يتلاحم الراقصون في صخب

وضجّة، رغم أن المبنى العتيق الذي يقبع في قلب المدينة بدا من الخارج ساكنًا لا يتحرّك. أخذ يقترب من الصفوف المضطربة في حذر، ويراقب الأيدي التي تلّوح في الفضاء وتهتزّ مع الموسيقى. كان من ورائه ردريجو يدفعه إلى وسط ساحة الرقص الرئيسية دفعًا.

- "إن كنت ترغب في إجادة أيّ لغة في العالم، فهذا هو المكان المثالي للبداية يا صديقي"..

قال ردريجو بلكنته الألمانية التي لا تخلو من صفير الإسبانية، ثم تركه وسط الزحام.

بعد حوالي نصف ساعة من الرقص والدوران، اكتشف في نفسه مهارات جديدة لم يكن يعرفها مِن قبل. خفّت حركته، ولانت مفاصله، وذهب قلقه. لم يكن أبدًا يتخيّل أنّه ذات يوم سوف يتمكّن من تحريك أجزاء من جسده الثقيل بهذه الصورة الجنونية. كان تأثير الشراب الذي قدّمه له ردريجو، عن قصد، قد أخذ في الظهور على وجهه وحركاته ونظراته. شعر بالانتشاء والسعادة دون سبب، وذهب في حالة ما بين اليقظة والسِّنَة. أخذ خلالها يسأل نفسه ويخاطبها، "لماذا يا سامي لم ترقص في أي سرادق للذكر أقامه جدّك من قبل؟".

كان الدراويش في سرادق الحفلات الصوفيّة، التي شهدها وهو صغير، يدورون ويدورون بالساعات كذلك بانتشاء. يصرخ بعضهم بكلمات من لغات غريبة لا تنتمي إلى اللغة العربية. أترى كانوا يتعلّمون لغة جديدة، وكان شرط إجادتهم لهذه اللغة أن يرقصوا ويتحرّروا من جاذبية الأرض هكذا؟ يا له من حكيم هذا البرازيلي

ردريجو، هل يا تُرى تنطبق نظريّته عن الرقص وارتباطه بتعلّم اللغات على مجاذيب الصوفيّة؟ يتساءل ويحدّث نفسه. يبدو أن تأثير الخمر أفسد عقله تمامًا.

عندما سأل سامي أول مرة جدّه عن صرخات المجاذيب وكلماتهم غير المفهومة أثناء رقصهم، أجابه بأنهم يتحدّثون السريانيّة. يصرخون عندما ينتشون، وينتشون عندما يتحدّثون مع الزوار بلغتهم. فكثير منهم لا يتحدّثون العربيّة، وربما كانت السريانيّة لغة البرزخ.

رقص سامي في مبنى قديم، في قلب مدينة حاصرتها الثلوج، حتّى ذاب جليد قلبه، وشعر بأن الأرض تدور من تحت قدميه بسرعة عالية. انتشى، كلّما ارتقى وخفتت الأصوات من حوله، وشعر أن شيئًا ما يحمله ويرتفع به عن أرضية الملهى الذي يهتزّ من فرط الموسيقى الصاخبة.

عندما غابت الأصوات جميعها من حوله، شعر فجأة بملمس ناعم وساخن يحرّك شفتيه رغمًا عنه. تعُودُ أصوات الموسيقى والصخب مرة أخرى رويدًا رويدًا إلى سمعه، فيقلّ دورانه، ويهبط جسده الثقيل على الأرض مرّة أخرى بسرعة. يفتح عينيه ليجد أمامه عينين مغمضتين تتحرّكان بشبق، وأنفًا دقيقًا، ووجهًا أبيض مثل بياض اللبن، وشفتين قد انحشرتا بين شفتيه.

هالته المفاجأة فذعر، وهزّته الحيرة، وأربكه التردّد. حاول أن يدفعها عنه، إلاّ أنّ الفتاة العشرينية كانت قد طوّقته بيديها، وشلّته عن الحركة بالسمّ الذي وضعته في فمه بلسانها. لم يخلّصه منها غير

ردريجو، سحبه للمغادرة بالقوة، بعدما رأى أن سكرته قد بلغت حدّ الخطر، وكانت الساعة قاربت الخامسة صباحًا.

في صباح اليوم التالي لم يتذكر من أحداث فجر يومه الماضي غير أثر السمّ الذي تركته فتنةٌ على شفتيه سيصعب عليه نسيانها لفترة طويلة، وبالطبع لن يخبر كلاوديا عنها.

انتهت حصص الاستعداد لاجتياز اختبار إتقان اللغة الألمانية TestDaf. فالاختبار يؤهل للدراسة في الجامعات الألمانية. نجح سامي في هذا الاختبار وفشل في أن يتصالح مع نفسه بقيّة حياته. بدأ بعدها دراسة الماجستير عن اللغات الشرقية في الجامعة، وساعدته كلاوديا وأرشدته لأنّها سبق وأن اجتازت البرنامج الدراسي نفسه قبله بعام واحد، بعد أن أتّمت دراسة الفلسفة والمنطق.

***

في غرفة صغيرة في مساكن الطلبة كان يعيش سامي مع زوجته في حبّ ومودّة. أصرّ منذ البداية على الزواج، ولم ترفض هي طلبه الذي لا يطلبه كثيرٌ من الشبّان في بلدتها. قبل قدومه إلى ألمانيا كان قد تزوج من كلاوديا في مدينة دهب. سافرت بعد ذلك إلى ألمانيا، ثم لحق هو بها.

خلال تلك الفترة التي استمرت ثلاثة أشهر بين سفرها وانتظاره لقرار مصلحة الهجرة الألمانية، ترك عمله في مدينة دهب، وذهب إلى زيارة قريته التي تربّى وترعرع فيها في صعيد مصر.

عندما تراءت له شارونة من بعيد من المركب النيلـــي الصـــغير، انشرح صدره وانذبح في آن واحد. أتى من القاهرة بالقطار إلى مدينة مغاغة، ومنها صعد على أوّل مركب يعبر النهر الذي يتفـــرّع عنـــد جزيرة شارونة. عندما بلغ القرية الصغيرة التي تفصل النيل عن صحراء كبيرة، كانت كنيسة رئيس الملائكة مايكل أوّل ما رأى، والـــتي لم تتغير طيلة السنوات الخمس، مدّة غيابه عن القرية.

رأى مبنى الكنيسة وقد التصقت به أسطح البيوت المتواضعة المبنية بالطوب الأحمر، فطارت ذاكرته تحلّق أمامه في المكان الذي اعتاد أن يراه كلّما أراد أن يذهب في جولة خاطفة على ضـــفة النيـــل، أو في رحلات صيده للسمك، بعد أن يجمع مع أصحابه الديدان الحمراء من الطين يستخدمونها كطعم بدلاً من العجين. لطالما عنّفته جدّته عندما كان يسرق منها عجينًا من أحد أرغفة الخبز، الذي وَضَعَتْه الجدّة في الشمس لساعات طويلة، قبل أن تدسّه في الفرن الكبير أعلى ســـطح المنزل. اشتاق لصوت خرير الماء عند الساقية التي كان يدوّرها جدّه. ولحديث الجراد وصرصار الليل وقد ملأ فراغ الليالي التي قضاها مـــع أعمامه وأبناء عمومته يجمعون فيها حبّات الذرة الكبيرة عند الحصاد.

كبر سامي و لم يعد يسمع صوت الجدّة. كان هذا قبـــل وفـــاة جدّه بعامين. كانت الوحدة والعزلة عن الناس بعد رحيلـــهما مـــن سماته ودَيْدَنه. رحل أبوه وأمه عن العالم في حادث سير عندما كـــان في السابعة من عمره، صار بعدها جدّه وجدّته بمنزلـــة أب وأمّ. زاد جدّه عن جدته بأنه أصبح فيما بعد شيخه، وصار مريـــده، قبـــل أن يقرر دراسة الألمانية على حساب طريقة جدّه المُثْلى.

لا يعرف لماذا يقوم الآن بهذه الزيارة غير المحسوبة. خمسة أعوام لم تطأ قدماه القرية بعد أن شيّع جثمان جدّه وشيخه. رأى أن صلته المادية والروحية قد انقطعت بعدها بالمكان وأهله، و لم يعد هناك ما يدفعه إلى الذهاب إلى قريةٍ مبعدةٍ في زيارةٍ دون سبب مقنع. رأى أن العمل في مدينة دهب يناسب ميوله الانطوائيّة، ويوافق نزعته في الابتعاد عن كلّ شيء. فأبناء عمومته تركوا قرية شارونة المنفيّة وذهب البعض منهم للعمل في المنيا والفيوم وأسيوط. يمتلك سامي شقّة في بيت العائلة الكبير المكوّن من أربعة طوابق، أصرّ جدّه على أن يخصّصها له بعدما رأى طمع أعمامه يتزايد. غير أنه تنازل عنها مقابل مبلغ زهيد دفعه له عمّه الكبير مجاهد على مضض.

عن أي شيء جاء باحثًا إذن؟ هل جاء ليلقى وداعًا أخيرًا على جدران بيت حوى بين جنباته أنفاس من كان يحبّهم ويحبونه؟ هل أراد أن يمتّع أنفه برائحة التراب المقدّس الذي غطّى أزقة شارونة وعطّر ذاكرته؟ هل اشتاق جلده لأشعة شمسها في يوم شتاء كهذا؟ فتمنحه شمسها القويّة قشعريرةَ الدفء، وراحةَ الفكر، وحضورَ الجمال. هل كان النيل الذي يضيق عند جزيرة شارونة هو ما ناداه لينهي تيهَه في صحراء موسى حول مدينة دهب؟ ليرجع هائمًا على وجهه يبحث عن أيقونة ذاكرته ومرتكز ماضيه في زيارة أخيرة لوادي النيل، قبل النداء الأخير إلى بلاد الثلج والبرد والجمود؟

طالت زيارته لقريته المبعدة، واستمرّت طوال فترة انتظاره لقرار الهجرة. قَتَلَتْهُ الحيرة. ساعدته جدران الحجرة الرتيبة في بيت عمّه، الذي خصّصها له طيلة فترة مُكْثِه بشارونة، أن يبحر بعيدًا

عن شاطئ كلاوديا. في أثناء إبحاره تراقصت أمام عقلـــه أفكـــارٌ غريبة.

ماذا لو أنه تراجع عن قرار الرحيل؟ ماذا لو تـــرك كلاوديـــا، ومدينة دهب، وحتّى شارونة؛ وراح يبحث عن مكان بكر، وأنـــاس آخرين، وعلاقات جديده؟ ماذا لو أنّه ظلّ هنا في شارونة، واشـــتغل بأي عمل بسيط؟ يتفرّغ للعبادة والتقرّب بالنوافل حتى يصير عبـــدًا ربانيًّا، كما تمنّى مرارًا بعد كل حكاية سمعها، وهو صغير، من جـــده في حلقة الذِكْرِ الأسبوعيّة. ماذا لو أنه أصغى إلى طلب خالته هديّـــة، فتزوج من ابنتها الوحيدة في بيتها الكبير؟ يضع يده بعد ذلك علـــى أرضها، ويصير أبًا وزوجًا ورجلاً للبيت الذي يفتقد لأب قد مـــات منذ أمد بعيد، وترك مسؤولية البيت والأرض إلى زوجته هديّة وابنتها الوحيدة. ماذا لو أنه اختفى وراح يبحث عن الله في كل مكان حتّى يجد ذاته، أو يفنى في حبّه؟

يدركُ سامي أنه سوف يندم على ارتحالـــه إلى بـــلاد الصـــقيع وحضارة الجمود.. سيلعن الماضي الذي أتى به إلى نهاية لا يرغب في بلوغها، و لم يخطط لها منذ البداية.. ستحيّره مشاعر جديـــدة عليـــه لأُناسٍ لم يختبر قلوبَهم، ولن يقدر على اختبارها أبدًا، مهما حـــاول.. سيربكه تفكيرُهُم، ومنطقُهم، ونظراتُهم.. سيجد صعوبة في تفســـير شفرات حديثهم، ولهجاتهم، وسكناتهم، وحركاتهم.. سترهقه الرحلة، وتستهلكه الأماكن، وتقطّعه الأمصار، ويمزّقـــه الســـفر.. ســـيكبر طموحه، وسوف تتضخّم هالته، حتّى أنّه لن يجد مكانًـــا يمكـــن أن يحتويه، ولا زمانًا يكفي لوقت ارتحاله، ولا محطّـــة تتســـع لحقائبـــه.

ستضيق عليه أكبر المدن، وستصير حقيبة يده الصغيرة كوكبًا، يحمله ولا يحمله. ستلحق به لعنة جدّه وشيخه:

"يا ولدي الزم المكان يأتيك المقام، ولا تغادر فتأكلك الحيرة، وتطاردك الأماكن، ويرفضك الخاص والعام".

روما

آب 1746م

عامان من العمل الـدؤوب قضـيتهما في مطعـم الخواجـة برطولوميوس. آواني المطعم الصغير وأنقذني من شتائيْن متعـاقبيْن، لم يكن جسدي المتعب لينجو من البرد خلالهما. تعلّمت الكـثير مـن مفردات اللغة الطلياني من الطباخ البِيرْتو. أوكل إليّ مهمّـة تقـديم الطلبات للزبائن، بعد أن رأى أن لساني اعتاد على التحدّث بلغته شيئًا قليلاً. تختنق الكلمات في حلقي في كثير من الأحيان، فأجدني أتلعثم في حروف وتعبيرات لا أجدها سريعًا في عقلي ساعة احتياجي إليها، فأقولها بعربيتي التي تركتُها في ميناء طرابلس، يوم قرّرت الرحيل.

ظلّت لغتي العربية على شاطئ طرابلس و لم ترحل معي. كلّمـا توّغلتُ في الغياب، اشتقت إليها كمن يشتاق إلى أمّه بعـد أن وَارَى جسدها التراب. في المساء، عندما أختلى بنفسي بعيدًا عن صـخب الطليانية، كنت أغمض عيني وأنا على فراشي، فيأتيني صوتُ أمـي متسلّلاً من خلف ستار الذكريات. يأتى صوتها عذبًا مثلما كانـت تغني لي، تسمعها جميع النجمات التي زيّنت سماء نهر الوادي المقـدس من منبعه في مغارة قاديشا وحتّى مصبّه في بحر طرابلس. تزورني أمي كلّ مساء بطيْفها، فتطير رائحة البرتقال والليمون والتوت التي ازيّنت

بها طرابلس الفيحاء، وتستقرّ في أنفي وفي روحي. يا لِحضور الذِكْرَى، رغم بُعْد المسافات.

تعلّمت من جعفر أن أدّخر لغدي وأقتصد في معيشتي، فتزايدت مدّخراتي وكنت على ثقة من أنّي سوف أتخلّص يومًا ما من عملي المتواضع في مطعم صغير ينظر إلى نهر التيْبر برتابة.

أبعدتني عن النساء تجربتي البائسة مع حبيبة. لا كرهًا لهنّ، وإنّما بُغضًا لِمَنْفَى أرسلتني فيه حبيبة رغمًا عني، أو هكذا تصوّرت. فربّما كان الرحيل مقصدي منذ البداية، وما كانت حبيبة إلاّ آخر حبلٍ يربطني بطرابلس، وبالقلاية، وبالوادي المقدس قاديشا. انقطع منّي هذا الحبل يوم أن غادرت أرض الشام ليلاً، راكضًا، خائفًا. وربّما كانت حبيبة سببًا لهروبي إلى عينين لم أرَ في منفاي أجمل منهما شغفًا، ولا أعمق من محيطهما حكمةً وذوقًا.

إني لأشكر حبيبة أن نصحتني بالرحيل، فأطعتها دون تفكير. كمن يدفعه الموتُ إلى الجنّة، دفعتني نصيحتُها تجاه كرستينا. امتثلتُ لأمرها، ولم أكن أدري حينها أنّها مُرسَلة من قِبَلِ الحبّ كيّ تدُلّني على الخلاص في قلب أجمل امرأة، وهي كذلك لا تدري.

أيّ سحر بثّته عيناها الخضراوان في عينيّ عندما قابلتها أوّل مرّة؟ أيّ سرٍّ أوْدَعَتْهُ كلماتُها الصافية في نفسي عندما سكبْتُ عليها كوبَ ماءٍ من يدي المرتعشة وأنا أقدّم لها الطعام مذهولاً بجمالها؟

في مطعم صغير يطلّ على نهر التيْبر في بلاد الروما الخالدة، كان يومي الطويل في العمل يوشك على الانتهاء، وقتما وجدتُها. كنت مسحورًا إلى حدٍّ خطير يوم التقيتها في ركن من المطعم، خَلاَ من

الضياء، إلاّ مِن نور وجهها القدسي الوضّاء. التقيتها وكأنني التقيت مرادي وغايتي. أدركت على الفور أنّ عيني هذه المرأة مختلفتان. أنّ حياتي تغيّرت لحظة دخولها عالمي. شعرتُ كذلك بالخوف الشديد. لم أعرف في البداية من أي شيء تحديدًا. إلاّ أنني أدركت فيما بعد أنّ خوفي مباح. خوف المحبّين قداسة وطهارة من دنس البعاد وألم الفراق. نخاف على الأشياء الثمينة من الضياع لأنّنا نكره وجع الوداع.

- "ساكوزاتا سنيـ....".

قلتُ بلغة إيطالية ركيكة.

- "لا مشكلة"..

أجابتني كرستينا في أوّل لقاء مرتبك بابتسامة دافئة أنستني الكلام، وزادت من ارتباكي.

حين التقيتها ذلك اليوم للمرّة الأولى، كانت قد انقضت مدّة ليست بالقصيرة على وصولي إلى بلاد الروما، لم أكتسب خلالها اللغة بصورة جيّدة. وبخلاف أسماء الخضروات والفاكهة والتوابل والوجبات والأطباق الرئيسية التي يقدّمها المطعم، لا تسعفني في كثير من الأحيان اللغة الجديدة في التعبير، وأضطر رغمًا عنّي أن أسمح لبعض الكلمات العربيّة أن تنسابَ من بين شفتيّ. فالكلاب التي قضيت معها معظم الوقت في الشوارع والميادين مذ دخلت هذه الديار لا تعلّم المرء غير النباح، ولا أعرف لماذا بعد عامين من وصولي إلى هذه الروما لا تطاوعني الطليانية إذا سألتها أن تعيرني بعضَ مرادفاتها، لا سيّما في مواقف محرجة كهذه.

في هذه اللحظة أبديّة التكرار في ذاكرتي، نسيتُ جميع النوائب التي مرّتْ بي، حتّى أني تناسيت منفاي. كادت عيناي أن تفضحاني وتعترفا لها بكل تاريخي المريب، وبكل هفواتي وضعفي وضلالي. شعرتُ أني أعرف عينيها جيدًا منذ زمن بعيد.

- "معذرة يا سيدتي، سامحيني"..

قلت باقتضاب، وانصرفت قَلِقًا مُنهيًا أوّل لقاء جمعني بعينيها.

في اليوم التالي، كانت مفاجأتي كبيرة. مثل أي يوم مضى فتحت الباب الداخلي للمطبخ. شرعت في عملي بأن توجّهت إلى قاعة المطعم، وأخذت أجمع طلبات الزبائن لكي يجهزها البيرتو في المطبخ. تسمّرتُ في مكاني أرنو إلى النور الذي تكرّر مجددًا في الركن المتوهّج من المطعم المتواضع. وددت لو أنني أخلع نعليّ تقديسًا لضيائها، واحترامًا لقدسها. أي سكينة ترافق مجلسها، وأي طمأنينة تحيط هالتها.

لا أعرف كم من الوقت وقفت هناك أتأمّلها من بعيد خشية أن أطفئ لحظة توهجها إنْ دنوت منها. أو تحرقني هي بصفائها إنْ لامَسَتْ دنسي وعصياني. لو تركني الناس على حالتي هذه دون تنبيه أو لوم، لوقفتُ هكذا إلى أن تذهب روحي، أو تنصرف هي من أمامي. لم أتزحزح من موضعي هذا إلاّ بعد أن رأيت قطعةً من النور تتلألأُ أمام ناظري من ركنها الهادئ في تلويحة بيضاء ساطعة كلون الياسمين الذي زيّن شوارع طرابلس. تشكّكت في أمري. ذهلتُ، ولم يسعفني التفكير في ما أفعل. لم تستجب أطرافي لعقلي، وظللتُ هكذا مكتوف اليدين والقدمين حتّى جاءت التلويحةُ الثانية. انطلقتُ إليها

كطائر طار منذ قليل من محبسه الأزلي. وقفتُ صامتًا لبرهة من الوقت، و لم تتحدّث هي كذلك. نَظَرَتْ إليَّ طويلاً، فاستسلمتْ عيناي لبريق عينيها و لم ترمشا. ابتسمتْ، فضحكتُ. سألتني منذ متى وأنا أعمل هنا، ثم أخبرتني أنها معجبة بلكنتي الإيطالية.

- "من أين؟".

قالت لي وقد تنقّلت عيناها تنظران بين عيني يمنة ويسرة بسرعة طيّرت لبّي.

- "من بلد في الشرق يُدعى الشام".

أجبتها وقد اختلستُ نظرة خاطفة إلى شفتيها الرقيقتين. ملامحها دقيقة جدًا تجعلك في تخوّف دائم من أن تطيل النظر إليها، فتتأذّى من عينيك، أو تذوب من نظرتك. غير أنّها في الوقت ذاته تخفي في أعماقها أنثى جامحة تشتعل عيناها بالذكاء. للحظات تخيّلتها شريكة لي في منفاي، وتناسيت ما بيني وبينها من اختلافات كثيرة، كانت اللغة أدناها.

- "مررت بالشام ذات يوم عندما كنت ذاهبة للتنزه في إستانبول مع زوجي، لم نمكث هناك طويلاً، غير أني أحببت الميناء المتواضع، ووجوه الناس الصديقة"..

قالت بسرعة، فلم أتذكر من كلامها غير كلمة "زوجي". تغيّرَتْ ملامحي بسرعة شديدة، وانسحبتْ ابتسامتي إلى الوراء تجرّ معها خيبةَ أملٍ كبيرة. وقبل أن أتمادى في اغتياظي، قالت لي إن زوجها كان تاجرًا كبيرًا وتُوُفي منذ عامين وتركها وحيدة في بيت كبير بطوسكانه، ليكورنا. على الفور تبدّل لون وجهي من الصفرة

إلى الحمرة، وعادت ابتسامتي من جديد ترقص حولي كعروس بحر أعتقها ملك البِحَار من الحبس.

- "كوزا ستابي فاشيندو آ روما؟"..

سألتها بعد أن استجمعت كلَّ قوايّ كي يحاكي صوتُ لساني ومفرداتي لغةَ أهل الروما ولكنتهم. بعد أن انتهيت من سؤالي، لمحت في محيّاها ابتسامةً حاولتْ أن تكتمها كي لا تحرجني، ثم جاوبتني وقالت إنها هنا في زيارة قصيرة لأختها قبل أن تعود السفن التي تركها لها زوجها من رحلتها التجارية إلى دمياط والإسكندرية وعكّا. كما أخبرتني أن مدّة إقامتها هنا ليست طويلة، ولم تحدّد تاريخًا لعودتها. سألتها عن طلبها للغداء فطلبت مني أن أختار لها.

في المطبخ، الذي بدا لي غريبًا وجديدًا للمرّة الأولى منذ عامين، درتُ حول نفسي وحول البيرتو. تحيّرت في أي وجبة أقدّمها لها، فاستعنت بالبيرتو الذي رمقني بنظرات من شكّ وريبة عندما حكيت له ما صار بيني وبينها منذ قليل. خبطني بكوعه الدقيق في كتفي اليسرى، وحرّك شاربه الكثّ وهو يطمئنني بأنّه يعرف طلب السيدة وسيعمل عليه حالاً. كنت أثق في البيرتو ولم أتدخّل في عمله، لا سيّما بعد نظراته الثاقبة التي أكّدت ظني بأنّه يفهمني جيدًا.

قدّمتُ لها الطعام، فطلَبَتْ منّي أن أشاركها المائدة. اعتذرت منها وقلت إنّه لا يصح هذا ولا ينبغي لي. فذهَبَتْ لصاحب المطعم تجرّ طرف فستانها الأبيض واستأذنَتْ منه بذوْق أن أجالسها أثناء تناول الطعام، فوافق من فوره وحيّاها بأدب.

تبادلنا الحديث لساعة كاملة، مرّت وكأنّها لحظة خاطفة كصوت ناقوس الكنيسة، قويًّا حين يخبط في أسماعنا، ويبقى صداه يرنّ داخل مهجتنا لبرهة طويلة بعد انتهاء قرْعِهِ على آذاننا. لم أسلم خلال حديثي معها من نظرات الخواجة برطولوميوس والطباخ البيرتو التي زادت من ارتباكي وقلقي.

ما أكثر النساء اللاتي عرفتهنّ في الماضي. عاشرت منهنّ كثيرات. طمعن في عضلاتي المفتولة وصدري المنتفخ وغير ذلك، ولم أكن مرتبكًا هكذا من قبل. غير أنّ هذه المرأة مختلفة.

قبل أن تنصرف كرستينا، سألتني متى سينتهي عملي اليومي في المطعم، فأخبرتها دون سؤال منّي عن مدعاة سؤالها، ولم أنتظر منها أي تفسير.

روما

تموز 1747م

انقضى عام كامل، وصورة كرستينا منطبعة في تلابيب عقلي لا تفارقني. ظلّ صوتها يتردد حولي كصدى لناقوس يـــرنّ في وجـــداني الفارغ. انتهت زيارتها لأختها بسرعة، وتركتني وقد أخذتْ قلبـــي معها قبل أن تغادر، لتضمن ولائي.

قبل عام، عندما سألتني عن ميعاد انتهاء عملي، كنت أعرف أنها تنوي على شيء. أدركت مغزى سؤالها عندما فاجأتني في اليوم التالي وهي تقف تنتظرني أمام المطعم مثل قنديل مضيئ، قوائمه من ذهب، وزجاجه من زمرّد.

كانت تتوسط ناصية الشارع المؤدي مباشرة إلى نهر التيبر، وقد لمعت عيناها مثلما لمع وجهها. شعرها الذهبـــي ذكّرني بقطعة الحرير الدمشقي التي أهداها أبـــي إلى أمي بعدما حصل عليها من تاجر لقاء خدمة أسداها أبـــي له. انعكست أضواء النهر الخافتة على بؤبـــؤي عينيها الخضراوين، حيث تجمّعت حول هالتها في ابتهاج، فأحالـــت لون عينيها إلى لون رمادي ساحر. كدت أن أفنى أن صافَحَت عيناي ضوءَ عينيها.

بمحاذاة نهر التيْبر الساحر مشينا، وتركنا كل الفروق التي شكّلت

حاجزًا بيننا في كومة مهملة عند باب المطعم. حارت الكلمات بيني وبينها، أبدأُ جملة بالطلياني وأنهيها بالعربية. أستجمع قواي وأعصر ذاكرتي وأحاول أن أجمّع الكلمات الجديدة التي تعلّمْتُها وأجعلُها في جملة واحدة؛ فلا تعبّر عمّا أريد قوله، وتجعلني أبدو كطفل صغير لم يكمل عامه الثالث ولا يستطيع البيان.

أحببت أن أكون طفلاً صغيرًا تعلّمه النطقَ والكلامَ أميرةٌ من بلاد الروما مثلها. كنت أراقب حركات شفتيها تتراقص في توتّر وهي تراقب شفتيّ وأنا أعاني من ثقل لساني وضعف حيلتي وحيرتي في بحر اللغة الطلياني. بدت حينها كأمّ تتابع أولى خطوات طفلها الرضيع في قلق، أيسقط على الأرض، أم يواصل مشيه المضطرب؟ رأت حيرتي وإصراري على التحدّث معها بلغتها، وضَحِكَتْ كثيرًا لتلجلجي.

كنت أدور في دوائر ولا أعرف كيف أنتشل نفسي من الغرق في حبّها، وشعرتُ لأوّل مرة أن هناك امرأة في هذا الكون لن أستطيع خداعها. وقد عزمت قبل ذلك بمدة طويلة أن أستسلم لامرأة مثلها، إن وُجدت.

بعد عام كامل ظهرت كرستينا كزهرة أوْرَقَتْ من جديد في صحراء قلبي، بعد ذبول ظننته أبديًا. كانت لا تزال تتذكر ميعاد انتهائي من العمل. وجدتها تقف في المكان نفسه الذي انتظرتني فيه أوّل مرّة منذ عام مضى.

فتحتُ عينيّ على آخرهما خِيفَة أن يكون ما أراه هذه المرّة مَحْضَ وَهْمٍ من نسج خيالي، مثلما فعلتُ لأكثر من ثلاثمائة مرّة

تمنّيتُ فيها مجيئَها خلال العام الماضي. نظرتُ إلى الخلف بسرعة، وأعدتُ نظري مرّة أخرى لأتأكّد ممّا ترى عيناي؛ فوجدتها في مكانها تزداد أَلَقًا، وأزدادُ أنا اشتياقًا.

في لحظة ذابت فيها الموجودات من حولي اقتربتُ منها في شعورٍ ما بيْن اللهفةِ والاضطراب. هممتُ أن أصافحها، فاحتضنتني. أردتُ أن أربتَ على كتفها، فضمّتني بقوّة، كطفلة صغيرة ترى والدها بعد غياب دام لسنوات. استسلمتُ لذراعيها الطفيفيْن وهما يطوّقاني. صغيرانِ وإنّما يملكان العالم، ويملكاني. دام عناقنا لفترة لا أدري كم طالت. ارتقت روحي خلالها إلى منطقة يعجز القلبُ عن الإفصاح عن عذوبتها، ويقف اللسانُ مكتوفًا أمام وصفها. عندما انتهى العناق بقبلة تَرَكَتْها على خدي الأيمن، أمسكتُ بيدها وسرنا معًا. ذاب كلّ واحد منّا في الآخر، وصرنا كشجرة أَرز لها فرعان تتهادى على مَمْشَى نهر التيبر، شجرةٍ طارت من وادي قاديشا إلى بلاد الروما.

حكتْ لي عن زواجها السابق، وحكيتُ لها عن معصيتي. لم تنزعج مما حكيتُ، ولم أُعقّب. طوّقتني نظرتها في تحنان وسكينة، وشعرت أنه قد غُفِر لي بعد اعترافي لقُدْسِيهَا. مَسَحَتْ عن جبيني دَنَسَ الماضي، فتطهّرَتْ روحي، وطارت حولنا في طمأنينة. منحتني صكَّ غفراني دون أن تسألني عن أي مقابل. على الأقل حينها. وأدركتُ بعد سنين طويلة من حياتي الهنيئة معها أنّ المقابل كان أن أفتح قلبي، وأضع فيه أبهى امرأة تمنّيتها في حياتي. يا له من ثمن بخس بالمقارنة بما أعطتني هي. كالطائر الجريح الذي لم يندمل جرحه، ارتميتُ صدفة في طريقها. انتشلتني بدفئها وبعطائها الذي لا ينضب.

يصعب على أي رجل أن يُحاط بكلّ هذا العطاء، فلا ينحني قلبـــه، وتسجو نفسه، ويستقيم عشقه.

عَمَّدَتني كرستينا من جديد يوم أن رشّتْ كلماتِها على قلبـــي بماء المحبّة، وعرضت عليّ أن نتزوّج. دون تفكير مِنّي دخلتُ في دينها على الفور، وكفرتُ بما قبله. ومن يومها لم أرتدّ عنّها، ولم تطـــردني هي من رحمتها. اتّفقنا على الزواج والإقامة في ليكورنا. وبدأتُ مـــن يومها أرى الكون بعينين مختلفتين، وبقلب جديد. حدّثتُ نفسي: إنّ لنا موعدًا في القريب أيّها الصياد المصري الطيّب.

نيويورك

صبيحة 21 من يناير 2010م

للمرّة التي لا يعرف عدّها، يمسح سامي جزءًا كبيرًا من الرسالة، وأحيانا الرسالة كلّها، والتي ظلّ عليها طوال فترة الصباح عاكفًا. يكتبها وينمّقها. يختزلها ويطوّلها. يقرأها ثم يعيد قراءتها. قبل أن يقرّر أنّها لا تعبّر عن موقفه، فيحذفها أو يحذف أجزاءً منها.

في الماضي لم يتوقف طويلاً عند الجملة التي لا بد أن تبدأ بها رسالته: *"عزيزتي كلاوديا"* . أمّا اليوم، فحتّى هذه الجملة الافتتاحية، التي لا تخلو رسالة إلكترونية منها، تسبّب له أرقًا، وتجعله يتوقّف عندها، وتضع أمام عينيه علامات استفهام شتّى، كان أهمها: "هل ما زالت كلاوديا عزيزتي حقًّا؟".

يوقن سامي في عمق ذاته أنّها بالنسبة إليه ليست امرأةً عادية. كلاوديا هي تجربة حضارية وثقافية قبل أن تكون مجرّد قصّة حبٍّ غضّة. هي رحلة قَرَّرَ أن يخوضها منذ بدايتها، و لم يعرف حينها إلى أين تصير نهايتها. لم يكن هناك أي احتمال للصدفة حينها غير حبّه لها، وانجذابه لشخصها، وإبحاره في محيطها.

كلاوديا هي برزخ بين الشرق والغرب، بين العزلة والتحرّر، بين الروح والجسد، وبين المادّة والأثير.

بين بحره الشرقي وبحرها الغربـــي، حاول مرارًا أن يجد نفسه في هذا البرزخ. غاص بعمقٍ في أمواج البحرين اللذين لا يبغيان. حـــاول أن يزرع أسماكًا جديدة في المسافة الواسعة بينهما، علّه يخترق بحـــور الشك بمخلوقات جديدة تجمع صفاتهما المتنافرة. دمج لغات البحرين في سلّة واحدة، وراح يشكّل منها لغة وسيطة جديدة، كـــي تطـــرد التباعد والغريب والمختلف. بحث عن المشترك في البحريْن وأزاح عن أمواجهما أي اختلاف؛ فلم يذب البرزخُ بينهما، ولم يجد مفرًّا مـــن الغرق في البحرين سوى بالرحيل.

يدرك سامي جيّدًا أن قرار الرحيل عنـــها لم يكـــن دافعـــه الرئيسي معرفتَه بالصدفة أنّ أمها يهودية الأصـــل. وعلـــى أيّـــة حال، لقد ماتت الأم، ولم تخبره بذلك حينها. الأمر أكبر من ذلك بكثير.

قبل أن يقرّر ترك زوجته وأم ابنته الوحيدة بعام أو بعامين، كان الملل يتسرّب ببطء شديد إلى روحه وإلى عقله. لم يكن الضجر نابعًا من ابنته ولا من زوجته، وإنّما جاء الضجر متسلّلاً إليه مـــن فكـــرة الحياة كلها. أراد حينها أن يذهب إلى أبعد نقطة عن أي شـــيء دون سبب ما.

في السنوات التي قضاها في ألمانيا يدرس اللغة ثم يكمل الماجستير ثم يحصل على وظيفة جيدة؛ كثيرًا ما كان يفكر في ما يفعلـــه الآن، ولماذا يفعله. تحوّل تدريجيًا إلى إنسان مشوّه بحياة المـــادة، طـــامعٍ في مكسب دنيوي، وتائهٍ بين عالمَيْن. لا ينتمي إلى مكان ترسمه حـــدود. عندما أرهقه التفكير، قرّر الهروب بالرحيل.

ماذا يكتب لها وماذا يقول؟ لا بد أن كلاوديا تعتقد أنّ سبب رحيل زوجها عنها يَكْمُن في كذبةٍ لم تكذبها. لا بد أن الشعور بالذنب عن خطأ لم تقترفه يرهقها، ويؤرّق ليلها بعد عامٍ صمدتْ فيه وكتمتْ حزنها في داخلها.

سوف يكتب لها بالطبع "عزيزتي كلاوديا". لن ينسى أوّل حبّ طار به إلى عالم جديد لم يكن ليزوره في حياته لولاها. سيحكي لها عن اشتياقه لابنته خديجة. سيسألها عن صحتها وعن أصحابها في المدرسة. سيطلب منها أن تقبّلها بالنيابة عنه فوق خدّها الأيمن وفوق جبينها الدافئ بعد أن تدخل سريرها كي تنام. سيحكي لها عن رحلته إلى أمريكا وعن المكتبة والأرشيف. سيحكي لها عن الخطابات البكر التي فتحها بيده للمرّة الأولى منذ مائتين وخمسين عامًا، وعن أنطوان خير، وعن كرستينا. سيخبرها عن أمر العجوز فكتوريا، وعن بيتها المنفي، وعن هرّها فيفي.

كتب سامي عن كل شيء، فما لبث أن مسح جميع ما كتب، وبدأ من جديد:

"عزيزتي كلاوديا"...

ليكورنا

تشرين أول 1749م

أقف على يسار برج ميلوريا فوق الصخور المتناثرة بطريقة عشوائية، والتي تراصّت وتكاتفت لصدّ أمواج البحر الهائجة بالقرب من ميناء طوسكانه. كان يقف بجواري صيّادٌ محلي يعتمر قبّعة مستديرة من القش السميك وقميصًا من الكتان. شَمَّر عن ساعديه اللذين يكسوهما شعر جلده الأبيض. ارْتدَى بنطالاً أسود فضفاضًا، وانتعلَ حذاءً من الجلد. في يده اليسرى يحمل صُرّة صغيرة يضع فيها ما اصطاده في يومه، والذي لم يكن بالكثير على ما بدا لي.

ذكّرني الصياد المثابر بجعفر، صديقي العصاميّ الذي تعلّمتُ منه الكثير في الروما. والذي رفض أن يودّعني عندما حان موعد سفري مع كرستينا، وقد بدا في عينيه قلقٌ وحنينٌ واشتياقٌ وخوفٌ في آن. قال لي إنّه لا يودّع إلاّ من ينهي علاقته بهم إلى الأبد. أمّا علاقتي أنا به فيراها جعفر أبديّة. زرتُه بعد رحيلي إلى ليكورنا مرّات عدّة، وزارني هو العام الماضي.

أصوات الطيور العالية في هذه البقعة من الشاطئ الصاخب كانت تكفي أن تحذّر الأسماك من الصيّاد الذي لم يستسلم، وراح يلقي عصاه في الماء علّها تأتيه بخير. لم تهتزّ عصاه كثيرًا هذا الصباح،

حيث غطّت السماءَ سحبٌ ثقيلة أوْهَمَت السمكَ أنّ المساء قد اقترب، ويجب على كل من يريد النجاة أن يسارع بالرجوع.

بدا برج ميلوريا ككنيسة لم يكتمل بناؤها، أو كمحراب نسي من شيّده أن يكمل أجزاء المسجد الأخرى، أو كمعبد يهودي ينقصه تابوت لفائف الشريعة. بناءٌ مصمت من حجارة بيضاء تشبه لون الصخور التي طوّقت أسفله، وحجزت أمواج البحر عنه. محيطه الصغير، الذي لم يتجاوز السبع أقدام طولاً وعرضًا، كان ملاذًا للصيّادين والمسافرين، الذين يستظلّون في جوفه، لا سيّما الغرباء، أمثالي.

عندما كان يعتصرني العمل، ويضيق صدري بالحسابات، وبالبيع والشراء، وبصخب التجار والحمّالين والمراكب؛ كنت أفرّ إلى هذا المكان البديع. أدخل بهو البرج الذي تتوسّطه أربعة أبواب، وكأنّه مفتوح على الجهات الأرضيّة الأربع، وأجتمي فيه من الضجر. شرعاته الأربع مفتوحة أبدًا. كان لها خوار كلّما مرّ هواء البحر متبوعًا بموجة عالية، أعرفها من قطرات الماء المالح التي تتكوّر على شفتي، وفوق عينيَّ المغمضتين كلما صفعت الشاطئَ موجةٌ عالية.

يعرفني البرج ويحفظ ميعاد قدومي إليه طيلة الأعوام الثلاثة منذ أن رجعت مرّة أخرى إلى ليكورنا مع كرستينا. كلّما نظرت من خلاله إلى أمواج مضطربة، لاحتْ أمام ذاكرتي حالتي وأنا أقاتل موجَ هذا البحر بعد هروبي من سفينة هروبي. ذكّرتني كذلك بطرابلس، وبموج بحرها الهادئ. أخْبِرُ البحر بيومي الطويل في العمل، فتنسيني رائحتُه تعبي، ويمنحني هواؤه راحةً وسكينة. أتركُ قلاّيتي

الجديدة في برج ميلوريا، وأسير عائدًا إلى بيتي الدفيء، بعد أن أرمي جميع همومي وضجري في اليمّ.

كنت أفضّل دخول البيت على زوجتي من غير آثار لقلق أو متاعب أو هموم في وجهي. وكانت تفشل أغلب محاولاتي أمام قوّة عينيها، وخلف ضعف حيلتي. أحكي لها بعد إلحاح عن مشكلة أو مشكلتين، فتنصحني تارة، وتقنعني تارة أخرى، ثم تترك لي القرار.

بعد موت زوجها، التاجر المخضرم، صارت تحت إمرتها سبعة مراكب، وعشرة مخازن للبضائع، وكثيرٌ من الحمّالين والعمّال. أدارت الدفّة بنجاح باهر، رغم صغر سنّها، ونالت احترام الجميع في المرفأ.

بعد أن تزوّجنا، تعلّمت على يديها أمور التجارة والبيع والشراء لمدّة عام كامل، فأحطتُ بكل صغيرة وكبيرة عن الميناء، وحركة البضائع، وميقات تحرّك المراكب، وأسعار السوق. بعدها اختفت كرستينا تدريجيًا من ميناء ليكورنا، وتركت لي كل شيء لأديره بمفردي.

كزهرة بنفسج، ملأت بيتنا بجمالها ورونقها وهدوئها. وبعيدًا عن ساحة العمل، كانت تشاركني قلقي ومشاكل التجارة، تارة بالمشورة، وتارة بالحب.

تحوّلتُ من مساعدٍ صغيرٍ في مطعم ناء على نهر التيْبر بروما، إلى تاجر كبير في ميناء على البحر الكبير، يعجّ بالحركة وبالإثارة. شعرت حينها أنني وصلت أخيرًا إلى المكان الأقرب إلى نفسي وطبيعتي. ما كان صبري على عملي المتواضع في مطعم برطولوميوس إلاّ خضوعًا وموارية. وما كنت أظنني مستمرًّا في هذا المكان الضيّق والهادئ

طويلاً. تعوّدتُ على التمرّد والعصيان، ولم تقيّدني طيلة حياتي حدودٌ أو جدران أو بلدان أو قلاّية. احتبستني الفاقة والمسألة في جدران مطعم صغير بعض الوقت، حتّى حررتني كرستينا من عبوديّة الحاجة، ومن هوان الطاعة.

الآن يأتمر لأمرى أناس من شتّى البلدان والبقاع. من إسبانيا، ومن مصر، ومن القدس، ومن الشام. كان يعاونني كتّاب من جنسيات مختلفة في تحرير الخطابات، وكتابة الحسابات، وضرب الصكوك. كان العمل يقتضي أن أخاطب كل تاجر ووكالة بلسانها، والذين تجمعوا حول الميناء كأنّهم سكان برج بابل القديم.

كان أوّل قرار اتخذته في منصبي أن أضمّ شخصًا جديدًا إلى طاقم العمل. عندما سألتني زوجتي عنه، قلت لها إنّه الشخص الذي أرسلني إليها. حكيت لها عن الصياد المصري الذي انتشلني من الشاطئ وأنا أصارع الموت، والذي كان يسكن كوخًا صغيرًا قرب البحر شمال المدينة مع ابنته الصغيرة. ضمّتني بقوّة بعدها، وقالت لي: لهذا أحبك.

ليكورنا

تموز 1750م

في صبيحة مشرقة بفضل شمس شهر تموز، ذهبت منفـــردًا إلى البقعة التي لامس خدّي رملَهَا على شاطىء ليكورنا. دمعـــة حارقـــة بلّلت خدي عندما تذكّرت آثار المياه المالحة، وهي تأكل من وجهي ومن عينيَّ، يوم أن كنت مُلقى على وجهي في رمال أرض غريبة.

لا ينسى المرء أوّل نقطة بداية في أرض جديدة. لا سيّما عنـــدما ترسم هذه النقطة خارطة جديدة في ذاكرة الغياب. من هناك انطلقتُ أفتّش في لهفة عن كوخ الصيّاد المصري، الذي تركتـــه منـــذ ســـبع سنوات ورحلت إلى الروما، ثم رجعت إليه اليوم أبحث عنه لأردّ لـــه الجميل.

من بعيد، وبعد انتهاء الرمال الذهبية التي اكتست بهـــا أرض الشاطئ، لمحتُ هيْكلاً خشبيًّا شبيهًا بالذي غادرته. كلّما اقتربـــتُ منه، كلّما ازددتُ فيه يقينًا. شحب لون الكوخ، وازدادت قتامـــة منظره. طرقت بابه المهترئ، وانتظرت. لم أتلقَّ أي ردٍّ من الداخل، فعاودت الطرق مجددًا بأكثر قوة. عندما لاحظت أنّ الباب البـــالي يهتزّ من قبضتي القوية توقفتُ على الفور، وأنا أرجوه ألاّ ينكســـر أو يتلف.

كدت أن أنصرف بعيدًا عنه، وحسبته مهجورًا. أوليت ظهري لبابه في يأس، ونويت على مغادرته، وأنا في غاية الأسى. ترى أين ذهب الصيّاد المسكين؟ ماذا فعل مع ابنته الوحيدة، التي كان يقتل صوتَها فقدانٌ لحضن أمها؟ وقبل أن أبدأ أسئلتي الحائرة، شعرت بحركة خفيفة بالباب من خلفي. استدرت، فإذا بي أرى شخصًا مسكينًا ضعيف القوى، بدا لي متسوّلاً وقد سكن الكوخ المهجور بعد رحيل الصياد وابنته.

اقتربت منه أسأله، علّه يدلّني على مكان الصياد. فاحتْ رائحة الخمر من فمه، وغطّى شعر لحيته كلّ معالم وجهه. لاحظت في خدّه الأيمن شامة سوداء تحاول أن تظهر لي من بين غابات الشعر الكثيفة في وجه الرجل الغامض.

- دانيال؟

صحت به، وأخذت أمسك بذراعيه، وأهزّه علّه يجيبني. فتح عينيه بذهول كأنّه لا يعرفني.

- هل أنت دانيال، الصياد الطيب الذي أنقذني منذ سبعة أعوام من الموت على هذا الشاطئ، هل تتذكّر؟

لم يتحدّث إليّ، وكأنّه نسي الكلام، أو بلع لسانه. أطال النظر وأشاح بيده في الهواء بحركة مَنْ لا يهتم ولا يبالي. كان الخمر يغمره بالكليّة، وفاحت رائحة العفن من ناحيته، وقد اختلطت برائحة الخمر في الوقت ذاته. أشفقت على حاله، وشعرت بواجبي تجاهه بأن أخلّصه مما هو فيه. دخلت معه الكوخ، وجعلته يستند إلى كتفي.

في الكوخ بحثت عن ماء فلم أجد، وكذلك لم أجد الفتاة الصغيرة. لا بد أنها كبرت الآن، ولم تعد طفلة في عمر السابعة، كما رأيتها أوّل مرّة. في أثناء بحثي عن الماء في كوخ الصيّاد البائس، هابني منظر المكان. تحوّل من جنة متواضعة، إلى قبر موحش. خَلَتْ أركانه من أي دفء، وأحاط به صقيع الوحدة. الثقوب التي كانت تتيح لأشعة الشمس بالدخول من سقف الكوخ، سُدّت جميعها بفعل الطحالب الخضراء، بعد أن تكوّمت في طبقات فوق سطحه. سكون قاتل وهدوء مميت غلّفا الأثاث المتهالك، الذي سكنته القواقع والسلاطعين.

أسرعتُ إلى البحر مرّة أخرى، وفي يدي دلو صدئ. اغترفت من البحر ما شاء لي أن أغترف. حملته بسرعة، وذهبت به عائدًا إلى الكوخ. أفرغت الدلو كاملاً على وجه دانيال. ناديت عليه بعدها، ورحت أهزّه بكلتا يدي. تذكّرت حينها حالتي عندما تراخت لحيتي طوال الفترة الطويلة التي قضيتها وأنا على السفينة، أختبئ من زوج حبيبة، ومن البحّارة، ومن الماضي المذلّ؛ حتّى حملتني سفينة هروبي إلى ليكورنا. تذكّرت كذلك لحيتي، التي علقت بها القاذورات وفضلات الطعام، عندما كنت أشارك الكلاب والقطط طعامهم كلّ مساء في ميادين الروما.

لم يمرّ علينا وقتٌ طويلٌ حتّى استفاق بصعوبة. كان خائفًا مني في بداية الأمر. كنت أرتدي بذّة من الحرير المطرّز. أكمامها طويلة، وتتدلّى من أطرافها أساور بيضاء. كان معطفها يصل إلى ركبتي، ويضيق سروالها من عند فخذي حتى أسفل رجلي، كما يرتدي علية

القوم هنا في هذه الديار. أنتعل حذاءً باهظ الثمن من الجلد، وأعتمر قبّعة من القشّ.

عندما قدمت من لبنان، كان القفطان الأسود من قماش الكتّان هو كل ما أملك، كنت أربطه بحزام من الساتان المتواضع من عند خصري. وبعد أن وصلت إلى الروما، احتميت من البرد بجوال من الجنفاص، عثرت عليه في الميناء قبل دخولي. تركت ردائي القديم، وتخليت كذلك عن أجزاء كبيرة منّي في جيوبه. ولكنني لم أفقد شعور الواجب تجاه من أنقذني، يوم أوشكت على الموت.

- "شو صار إلك يا دانيال؟ ووين البنت يالّلي كانت تملى عليك الكوخ؟".

- "أنا تعبان وموجوع يا أنطوان. لِلسَعَا بِتّي لَمْ فارقِتْ خيالي. وكل ما أحاول أنساها، يتّصِلْ حزني لشيء أكبر. ماتِتْ بعد ما انّته سِبْتِني بسنتين. لَمْ عَرَفْت طعم المعيشه من بَعْدَهَا. وحَسّيتْ إن الأجل بيطاردْني، وزَيّ ما انته شايف، حالتي قَوِي اتبهدِلِتْ. إنّما أنا ممنون لك كِتِير إنّك سألتْ عنّي. إنّما هدومك وهندامك زيّ الخواجات، كل ده سَبَبُه إيه يا تَرَى؟ احْكِيلِي".

- "إي نحمد الله، هالقصة طويله، نحكيها بعدين مش الحين. وهيصير بناتنا عمل. شو رأيك تشتغل معي. أنا بحتاج إلك إنك تساعدني وتصير ساعدي يالّلي اعتمد عليه".

- "مش بقولك انته حكايتك حكايه يا خواجة. تحت أمرك".

ضحكنا سويًا حتى اغرورقت عينا دانيال بالدموع. رغم ما بـه من ألم، إلاّ أنّه كان يتظاهر بالمرح معي. طأطأ رأسه بعدما نظر بعيدًا عني. كنت أتفّهم ما كان يشعر به حينها، فقد نالت مني هذه الحالـة مرّات عديدة. أعرف حالة الحزن هذه، التي يغلّفها فـرحٌ مُصْـطَنَعٌ بالرضى. وضعت يدي على كتفه اليمنى، وقبضتُ على عظامه الهشّة، التي برزت من شدّة الجوع، وألم الوحدة.

عاضدته وآزرته، فساندني وصار أقرب الناس إليّ بعد كرستينا. كنت أستغرب طيلة الوقت قبل اقترابـي منه كيف ليهودي مثله أن يبتعد هكذا ويسكن في كوخ مبعد مع أسرته الصغيرة، فيودّع زوجته ثم ابنته، ويبقى وحيدًا.

أعرف أن اليهود لهم باعٌ في التجارة والبيع والشراء والأعمـال الأخرى التي تجني الأموال، وقلّما تجد بينهم من يشتغل بحرفة الصـيد هذه. تحت إمرتي كثيرٌ منهم، تجّار وعملاء يملؤون البرّ والبحر، بـين إيطاليا وإسبانيا ولوانده ومصر والشام. أدركت بعدها أن دانيال مـا هو سوى هارب، مثلي، جاء من الإسكندرية يحتمي هنا من بطـش قريب له قد توعّده بالقتل. وككاتب ضعيف الحال والقوّة، خـاف على أسرته الصغيرة، فحملهم معه ذات ليل، وقرّر الرحيل بلا عودة. باع منزله في الإسكندرية، وقبض ثمنه بخسًا.

البيت الذي جمّله، وبدأ به مشوار حياته مع زوجتـه الحبيبـة، وادّخر له كثيرًا من المحابيب[1]، باعه بأقلّ من نصف ثمنـه، وأخـذ زوجته راحيل وابنته أميره، ورحل جميعهم مع أوّل مركب للبضـائع

(1) المحبوب: هو عملة مصرية في ذلك الوقت.

كان يستعد للرحيل إلى أي وجهة. اشترى كوخًا صغيرًا بالنقود القليلة التي قايضها في ميناء ليكورنا ببضع عشرات من الدوكات. لم يجد تاجرًا عربيًا حينها يمكنه الوثوق في أن يستأجر كاتبًا يهوديًا أتى من البحر خائفًا يترقّب، كما أخبرني.

عندما أوشكت الدوكات التي تبّقت في يديه على النفاذ، قرّر العمل في أي شيء غير الكتابة. لم يمكّنه جسده الهزيل أن يحمل البضائع إلى ومن المراكب التي اكتظّ بها ميناء ليكورنا. فاهتدى إلى مهنة أقرب إلى الكتابة، مهنة الصبر.

كصيّاد حديث العهد في بحر اغترابه، وجد راحة وطمأنينة، بل شعر أنّ الصيد يجرى في عروقه مجرى الدم. اشتغل كمعاون على مراكب كبيرة للصيد، وذاب في ليكورنا كما يذوب طائر النورس في سمائها خلف قرص الشمس.

لم تدم فرحته طويلاً، فبعد وصوله بقليل رحلت عنه راحيل. تركت له ابنة في الخامسة، وصمتًا التهم جميع آماله في البلد الجديد. عندما انتشلني من الموت، كان قد مرّ عامان على فقدانه لزوجته. وإني لأشعر بالرضا أن انتشلته من الغرق في الخمر حتّى الموت.

صار دانيال كاتبي المفضل. أستعين به في كتابة الخطابات إذا أردت أن أراسل تاجرًا في الشام أو مصر، فكثرة المراسلات كانت ترهقني وتضيع الكثير من الوقت. أعطيته ختمي الخاص، وسمحت له أن يقلّد توقيعي إذا تعذّر الأمر عليّ، وكان الأمر يقتضي ذلك. صار يفهمني وأفهمه، وكأنّه شريك حقيقي لي، وليس مجرد كاتب مأجور تحت إمرتي. بفضل علاقاته ومعرفته بالتجّار اليهود في الإسكندرية،

اتّسعت دائرة تجارتنا لتشمل المزيد من التجّار والعملاء في مصر من اليهود وغيرهم. نصحني كذلك أن نوسّع رقعة تجارتنا لتشمل تجّار مسلمين، وأعطاني عدّة أسماء من هؤلاء التجّار الذين تعامل هو معهم بحكم الرسائل التي كان يكتبها لهم عندما كان لا يزال في الإسكندرية. امتدح فيهم عدلهم وصدق كلمتهم في البيع والشراء.

كان كاتبًا مخضرمًا، ومفاوضًا بارعًا. لولا وجوده بجواري طيلة هذه السنوات، لما وصلت إلى هذا النجاح في تجارتي. كان يكتب للتجار المسلمين بلسانهم، وللنصارى بلسانهم، ولليهود بلسانهم. كان ترجمانًا يمشي على قدمين. يؤرّخ الخطاب بالعام والشهر الهجري إذا كان المرسل إليه مسلمًا. ويؤرخه بالقبطي إذا كان التاجر نصرانيًّا. ويضع الشهر اليهودي بحروف عبرية إذا كان التاجر يهوديًّا. حاذق في تعاملاته، وبارع ودقيق فيما يصفه من أسماء للبضائع وأعداد المرسل منها إلى متن المراكب.

جعل لنفسه دفترًا دوّن فيه كل ما كان يكتبه من حسابات في الخطابات. وأخبرني أنه يفعل هذا سرًّا، حتّى إذا انتهى العام، وجاء وقت تصفية الحسابات مع الشخص المسؤول عنها في طاقم العمل، تبيّن لنا أسارقًا كان أم أمينًا. استبدلنا في أربعة أعوام فقط سبعةً من الطليان، بعد أن افتضح أمرهم بفضل دفتره السريّ.

صار لي دانيال أخًا لم تلده أمي، وشريكًا يعاديه ديني.

نيويورك

ظهيرة 21 من يناير 2010م

لم يرسل سامي رسالته إلى كلاوديا، والتي كان يخطّط لها طيلة الصباح. عوضًا عن ذلك، انهمك في متابعته لقراءة مذكّرات أنطوان خير في شغف. توقّف طويلاً عند قصّة دانيال، الصيّاد أو الكاتب المصري اليهودي، الذي ترك منزله وهاجر إلى المجهول خائفًا. وكيف صار بعدها صديقًا وشريكًا لأنطوان خير. تبادرت في ذهنه حينها قصّته مع كلاوديا، ومنطقها من "مواطن العالم". شعر بضعف حجّته يوم أن قرّر الرحيل عنها لأنها يهوديّة الأصل من ناحية والدها. تتماثل الحكايات لولا اختلاف الأماكن، وتبدّل الوجوه، وتباعد السنين.

كان لا بد لسامي أن يبحث عن أذن تسمعه. ستقتله الوحدة إن لم يستجب لنداء البوح. ستمزّقه الرحلة إذا قرّر أن يواصل السير فيها بمفرده. لم يجد غير لوحة المفاتيح في مكتبه بعد أن انتهى من العمل في حجرة الأرشيف. كانت هي الملاذ الأخير له، قبل أن تمزّقه الوحدة. قرّر أن يكتب لزوجته، ولن يشطب هذه المرّة أيّ كلمة بعد جملة "عزيزتي كلاوديا":

"عزيزتي كلاوديا،

نعم أنت لا تزالين عزيزتي! لا تسأليني عن سرّ رحيلي. فحتّى أنا لا أعلم السبب الحقيقي من ورائه. غادرتك وفي القلب غصّة. غادرتك ولم تغادريني أنت. أقسم ببسمة خديجة، التي لا تغيب عن ناظري طلّتها في يقظتي أو في منامي، أنّ لك وحدك كلّ المفاتيح والأقفال التي أحاطت وتحيط بقلبي. صدّقيني إن قلت لك إنني أردت الابتعاد عن كل شيء فجأة دون سبب واضح. ولم يكن السبب الحقيقي لابتعادي أنت، وإنّما كان الانعزال عن الماضي رغبةً منّي في طلب الصفاء، والبحث عن مخرج من هذا الضجر.

ستقولين إنني لمجنون وداريت خطئي بهذه الكلمات البائسة. حسنًا، من منّا ليس مجنونًا يا كلاوديا. لو أنّك مررت بما عشتُه أنا قبل معرفتي بك، لو أنّك مُنيت بأن تنتقلي من ماء يغلي إلى ماء متجمّد، من جوف بركان إلى أعلى نقطة متجمدة فوق سفح جبل بعيد؛ لعرفتِ ماذا حلّ بي، ولأدركتِ حجمَ المعارك التي دارت وتدور في رأسي وبين جنبيّ كل ساعة قضيتها بعيدًا عن قريتي شارونة. لقد تحقّقتْ لعنةُ جدّي فيّ، إذ حذّرني غير مرّة من أخطار السفر. وها أنا اليوم لا أجد بقعة في الكون يمكنها احتمالي أو احتوائي.

لا أطلب منك أن تسامحيني أنْ تركتك دون وداع، فسافرت ولم أعلمك عن وجهتي. ما أطلبه منك هو أن تعلمي أنني لا أنساك ولن أنساك، فأنت التي يجتمع في حضرتها سرُّ شقائي وتسجَتِي في آن.

لا تنسي أن تقبّلي خديجة بين عينيها نيابة عني.

أرق الأمنيات،

سامي"

ليكورنا

تشرين الثاني 1752م

كما أهداني المنفى أصدقاء وشركاء، كذلك ابتلاني بأعداء وكارهين. كان من بينهم يوسف بكتي. تاجر مصري من وكالة كاتخدا الكبيرة في محروسة مصر. أنفه الغليظ، وشعره المجعّد، وصوته الأجشّ، هي صفات منحها له الربّ، المجد لاسمه، أضافت إلى جسده الضخم هيبةً ومكانةً بين الناس. موت زوجته، بسبب مرض الطاعون في مصر، أشعره بالوحدة ودفعه إلى الرحيل.

كانت الوكالة الكبيرة، التي امتلكتها أسرتُه في محروسة مصر، لها نشاط تجاري كبير في الإسكندرية ودمياط وليكورنا. أرسلوه إلينا لكي يجدد حياته التي ضاقت عليه بعد وفاة زوجته، ولكي يضايقني في تجارتي. سافر ليعمل على استلام البضائع وتسويقها في ليكورنا.

- "خلّصت الكرنتينا يا دانيال واتسلمت البضاعة؟".

سألتُه ذات يوم عن عمله اليومي. فإلى جانب كتابة الخطابات والحسابات التجارية، أوكلتُ إليه أعمال استلام البضائع من الحِجْر الصحي "الكرنتينا"، التي أصبحت مصدر قلقٍ لجميع التجّار حتى يوم كتابة هذه الأوراق. المرض الأسود حصد الكثير من الناس في شتّى بقاع المعمورة، وكان لا بد من الحيطة. ولكنّها حيطة كلّفتنا الكثير

من الخسارة، لا سيّما في البضائع التي تفسد بفعل التخزين، وطول الانتظار، حتى يُفرج عنها من الكرنتينا.

- "لم اتسلمتها إلى اليوم يا أنطوان. ونحن للسعا منتظرين وصول العصفر والشمع والصمغ والكتّان، بعده نخلّص الكرنتينا على خير، ونتسلمها وربنا يفتح باب وتتحسن الأسعار".
- "مركب القبطان براتو كرنيز دايما بيحصل له عوقه، ما بعرف إن كان هو السبب أم البحر، شو العمل؟".
- "يا أنطوان يا خويا رَيِّح بالك، وصلني مكتوب برناركي الفرنجي من سكندرية، وفيه بيطمّني إنه وسّق المركب بالبضاعة المطلوبة، وهي بتوصل لطرفنا مع أول فرصة. لَمْ في عازه من دا القلق. وانته عارف أحوال البحر والطقس".
- "أنا منتظر الجوخ يا دانيال، لأنه قليل في هل الطرف، ونحتاج نعملّه بازار سورعة قبل يوسف بكتي. من يوم ما إجَى والمراكب من سكندرية ومن محروسة مصر ما تِوَقفتْ ترسله جوخ وحرير ونحاس وغيره".
- "إن شاء الله مايحصلش عاقه دي المَرَّه. ونتسلم البضاعه بعد خلاص الكرنتينا على خير. وربُنا يِتْبَارِيخْ شِمُو[1] يعطينا الصبر".
- "ومن جهة الجلد ياللي ناطرينه من شهرين؟".

---

(1) بالعبرية: تبارك اسمه.

- "للسعا ما في خبر من جهته يا أنطوان. يوسف بكتي ومعاه التجار اليهود اتسلموا بضايعهم من جلد التيران قبلنا، ولا بد يبيعوا بسعر عالي".
- "ولا في أمل في جلد جاموسي؟".
- "الجلد الجاموسي لم عليه طلب في دا الطرف. ولو وصّينا عليه بياخد شهرين أو أكتر على ما يجينا. ويحتاج نعملّه مقايض بعصفر أو بغيره، لأن بِيع مقابل المال مَا فِي".
- "ويوسف بكتي عامل أبو زيد. عرفت آخرة الحكي يااللي صار عليه وعلى المرحوم جرجس؟".
- "جاني خبر وفاة جرجس وقوي حزنت عليه. كان طيب وصادق زِخْرُونُو لِبْراخا[1]. أنا صعبان عليّا ابنه المسكين اللي يوسف بكتي عامل عليه وصاية عشان ياخد فلوسه، ويحطّها في كِرْشُه".

كان يوسف بكتي تاجرًا جشعًا. بعد أن مات جرجس صوايا، التاجر المصري الذي كان معروفًا بيننا بصدقه وطيبته وحسن تعاملاته مع التجار، قرّر أن يأخذ رأس ماله ويستحوذ عليه بحجّة أنه يريد أن يدّخر هذا المال لابنه الوحيد بطرس. لم يكن بطرس يتجاوز حينها عامه السابع. طفل صغير تركته أمّه بعد عامه الرابع ورجعت إلى مصر. رفض جرجس صوايا حينها أن يترك الطفل لها، وكان الطفل شديد التعلّق بوالده.

---

(1) بالعبرية: رحمه الله.

طوال الثلاثة أعوام، بعد هجران زوجته له، أصابه داء الكبد ومات بعدما التهم المرض أحشاءه. كان بينه وبين يوسف بكتي شراكة يبلغ رأس مالها خمسة عشر ألف دينار. لم يرغب يوسف في فضّ هذه الشراكة بعد موت جرجس صوايا. استحوذ على رأس المال، ورفض مطالبة الورثة في مصر بفضّ الشركة. تزوّجت أم بطرس في الإسكندرية من رجل ثري بعد وفاة زوجها، على الرغم من عدم استحسان زواج الأرملة في ديننا، وتناست مع الأيّام ابنها الوحيد من جرجس. لا بد أن جرجس كان على حقّ في خلافه الدائم مع امرأته، التي لم تشاركه غربته وتركته وحيدًا. عندما تحبّ امرأةٌ، لا تهتّم بحدود المكان في علاقتها بشريكها وحبيبها.

قابلت بعدها يوسف بكتي في الميناء. وجدته واقفًا يضع إحدى يديه في خصره، يثني ركبته قليلاً، وقد كلّت قدماه من فرط وزنه الثقيل. يعتمر عمامة بيضاء، ويرتدي بنطالاً واسعًا من الحرير الأخضر. يضع عباءة من الجوخ الفاخر تصل إلى أسفل ركبتيه، وقد ربطها بحزام عريض من قماش أطلس المزركش باللون الأبيض والأسود في خطوط متجاورة مستقيمة. شاربه الكثّ، الذي بدا كمرساة صدئة تتدلّى من مركب كبير؛ يضيف إلى وجهه الممتلئ وعينيه الجاحظتين وقارًا واشمئزازًا في آن.

سألته عندما قابلته للمرّة الأولى منذ شهور بعد وفاة جرجس صوايا عن مصير الولد الصغير، ومصير المال الذي تركه المرحوم. أخبرني دانيال عمّا فعل بكتي، ولكنّي أردت أن أسأله، وأنظر في عينه

وهو يكذب ويتصنّع العفّة وحسن النيّة في ما يتعلّق بمصير الطفل اليتيم.

- "يا أنطوان دا الأمر بيني وبين أهل الولد في مصر. وما أظنش إنه يهمَّك". أجابني بعد أن انعقد حاجباه الغليظان في حنق.
- "يا أَخي منشان المسيح لا تواخدني هيك، أنا بدّي أعرف ليرتاح ظني من كلام الناس من جهة هل الموضوع".
- "كل ما في الأمر جرجس وصّاني على الولد قبل ما يموت. ومن كل بُد لازم أنفذ الوصية. الولد للسعا صغير. وأنا بنحوّش له الفلوس، لحد ما يكبر وياخدهم بنفسه".

تأكدّ لي ظنّ السوء فيه، وزادني يقينًا كذبه وحركة عينيه الواسعتين تميلان يمنة ويسرة في محاولة يائسة منهما لإخفاء الحقيقة. ثم تركني بعدها بحجّة انشغاله في تحميل شحنة المركب الذي على وشك الرحيل إلى دمياط.

كولونيا

21 من يناير 2010م

"سامي،

أنا لست عزيزتك كما كتبت لي. ورجاءً، لا تكتب لي هذا مرة أخرى. كيف أكون عزيزتك كما تدّعي، وتتركني هكذا دون سبب مقنع؟ ثم بعدها تغادرني أنا وابنتك، وترحل عنّا دون أن تعلِمَني. لست مقتنعة بحجّتك الواهية بالمطلق. "تبحث عن ذاتك". أيّ ذات تبحث عنها. كيف نسيت كلماتك لي. قلت لي مرارًا أنني وطنك ومبتغاك، وزادك ورحلتك. أترحل الآن دون زادك؟

أنت رحلت فقط لأنّك أنانيّ يا سامي. نعم، أعلم أن كلماتي قاسية عليك. ولكنّها الحقيقة. لكلّ واحدٍ منّا نقطة ضعف. وهذا هو نقص شديد في شخصيّتك، طغى على كل عيوبك ونواقصك الأخرى، التي لا داعي لذكرها الآن. رحلتَ لأنّك لا تطيق المسؤوليّة. لقد شعرت بهذا في السنوات الثلاث الأخيرة قبل اختفائك الفجائي عنّي وعن ابنتك. ولا تحاول أن تلعب دور المسكين الذي أكلته نار الغربة. فكلّنا غريب.

تحيّاتي

كلاوديا

21 من يناير 2010"

ليكورنا

كانون أول 1752م

أشفقتُ كثيرًا على يوسف بكتي رغم علمي بكذبه وبحِيَلِهِ التّي يتلاعب بها لتكون له اليد الطولى في ميناء ليكورنا. ألتمس له الأعذار كلّما تذكرت حكايته بعد فقده لزوجته في المرض الأسود، الـذي لم يترك بيتًا إلاّ ودخله. شعرت أنّ خلف هذا الوجه الذي يبتسم ويعلو صوت صاحبه بالقهقهة طوال الوقت حزنًا ثقيلاً وألمًا بالغًا. لا بدّ أنّه هنا يبحث عن أيّ نجاح بعد فشله وتخبّطه في مصر، وبعـد رحيـل زوجته عنه.

أذكر أنني رأيته ذات يوم يستند إلى السور الحجـري الطويـل الممتد بطول لسان الميناء. يثبت عينيه ناحية البحر لوقت طويل، وأنـا أقترب منه في هدوء كي لا أقطع عليه خلوته. يُلقي حملَ كتفيه الثقيل على ذراعيه القويّتين. ناداه أحد الحمّالين، الذين انتشـروا يفرغـون شحنة البضائع من المركب القادم من الإسكندرية كالنمل يلتفّ حول غنيمة قبل حلول الشتاء. التفَتَ إليه يوسف بكتي بغير اهتمام، ثمّ عاد ليواصل تأمّله في مياه الغياب. لا أعلم لماذا، في هذه اللّحظة تحديـدًا، أشفقت عليه. ربّما لأننا، وإن كانت بيننا منافسة كـبيرة وعـداوة مضمرة، شركاءٌ في ابتعادنا عن تراب أوطاننا.

اختلفنا في اللهجة وفي تعاملاتنا وفي حكاياتنا، وما زلنا نتقاسم أرضَ الميناء الجامدة بكلّ ما فيها من ضجيج المراكب، ونَعيق طيور البحر، وهدير الأمواج الهائجة، وصياح البحّارة. نسمع سويًّا اللغات التّي يضجّ بها الميناء يوميًّا دون انقطاع. نحاول معًا تعويد لساننا على نطق حروفٍ وأصوات تختلف كثيرًا عن لغتنا الأم. نتشارك سويًّا لقب *نيجوتسيانتي* بالطلياني، اللقب الذي كان يندرج تحته جميع التجّار من بلدان غير بلاد الروما في ليكورنا.

ألتمس له العذر، وألتمسه لنفسي. وأجدني أفضل حالاً وأوفر حظًّا منه أنْ رزقني الربّ، المجد لاسمه، بزوجة وشريكة مثل كرستينا. وما يدريني، لعلّه لا يكذب فيما يدّعي بخصوص جرجس صوايا. أليس الفقدُ كفيلاً أن يُوقِرَ في القلب شيئًا من الرحمة؟ وما كنت حاضرًا عند جرجس وهو يحتضر، يقترب منه الموت فيوصي يوسف بكتي بوصية لم يسمعها أحدٌ غيره، كما يزعم. لماذا لا أرى غير سوء الظنّ في غريب مثلي؟ ولماذا صدّقني دانيال عندما كذبت عليه وأنا أرتجف من وعكتي الصحية ومن خوفي يوم أن التقطني من اليمّ على شاطئ بحر مُبْعَد؟

لولا زوجتي، ملاكي الذي هبط على أرض بلاد الروما وانتشلني من الفقر والوحدة، لربّما أصبحت الآن شبيهًا بيوسف بكتي. أطارد أشباح الماضي، وأنتقم من قسوة الأقدار مثله، فلا أعبأ بمشاعر البشر من حولي، ولا أهتم إلاّ بنفسي. نحتاج إلى المرأة في أوطاننا بكلّ تأكيد. غير أن احتياجنا إليها يصبح ضرورةً حتميّة

في أرضٍ بعيدة، وبوصلةً في بحرِ غربةٍ لا يهدأ موجُـــه، ومرســـاةً لسفينة غيابٍ لا تعرف ميناءً، وسكينةً في ليالي رحلـــةٍ لا ســـبيل لإيقافها.

نيويورك

ظهيرة 21 من يناير 2010م

كان سامي يقرأ في مذكّرات أنطوان خير، وحديثه الآسر عن كرستينا، ساعة أن نزلت عليه رسالة كلاوديا الإلكترونية كالصاعقة. انتظر منها رسالة لوم خفيف، أو عتاب ضعيف. توقّع منها ردًّا أكثر مودّة، وأقلّ عداوة. خطرت بباله العديد من الرسائل القاسية المؤلمة، ولكنّه لم يكن يتخيّل أو يتوقّع مثل هذه الرسالة، التي رمتها زوجته صوبه في حسرة منه.

في اللحظة التي كان يفكر في ما قاله أنطوان خير عن ثنائيّة المرأة والغربة، باغتته كلاوديا برسالتها الفظّة، التي لم تلقِ لها بالاً. يدرك سامي جيّدًا أن زوجته تفاجئه دائمًا بانفعالاتها وثوراتها غير المحسوبة على الإطلاق. هي امرأة خارج كلّ التوقّعات. لا يجمعها بكرستينا، الملاك الذي هبط على أنطوان خير، أيُّ مشتركٍ سوى أنّهما امرأتان غربيّتان استقبلتا رجليْن هاربيْن مِن الشرق. وفيما استطاعت كرستينا ترويض قلب رجل شرقي، جامح، مثل أنطوان خير؛ فشلتْ كلاوديا في إطلاق سراح فكر سامي من عزلته.

تمنّى أن لو كانت كلاوديا مثل كرستينا. بعد تفكير طويل وحملقة إلى جدار الغرفة الزجاجيّة في الأرشيف، الذي كشف له عن

كل شيء من الداخل، رأى أن المشكلة لا تتجسّد في امرأة على الإطلاق. كرستينا أو كلاوديا أو أي امرأة أخرى كانت لتؤدّي الدور نفسه تمامًا. المتغيّر في هذه الحالة هو قلب رجل، وفكره، وحيرته.

كان أنطوان أكثر حكمة وفطنة من سامي. استطاع الأوّل أن يروّض جموحه ويقتل رغبته في الإبحار بعيدًا عن أي شيء، بينما فشل سامي في هذا. ربّما لأن أنطوان خير يهتمّ كثيرًا بالآخرين، وليس أنانيًّا مثله، كما وصفته زوجته في رسالتها الأخيرة.

ربّما كانت كلاوديا على حقّ فيما تزعم. لسنوات طويلة بعد زواجه منها، كان زوجها يتغيّر تدريجيًّا. كلّما اندمج في اللغة الجديدة وبدا من الخارج كأنّه فرد من نسيج المجتمع الجديد، ابتعد في أعماقه ورفض اللغة والناس. في المنفى، تتحوّل الأشياء المهملة التافهة، التي لا يفكر المرء أن يَقْرَبْهَا في الماضي، إلى نفائس يسعى لفعلها أو اقتنائها بأي ثمن.

لم يدخّن طيلة حياته، وعندما رأى أن تدخين "الشيشة" من ديْدَن الغرباء، أمثاله، أصبح لا يتخلّى عن سماع صوت المياه التي تقرقر في جوْف الشيشة، وأدمن على رائحة دخانها، الذي لم يكن ليجلس بالقرب منه في موطنه القديم مطلقًا.

صارت أبواب المقاهي والمطاعم الشرقيّة بالنسبة إليه، خلال حياته بعيدًا عن قريته وبلاده، بمثابة بوّابات سحريّة تأخذه إلى أماكن مختلفة لم يحلم في يوم من الأيّام أن يزورها. فيمكنه أن يتناول إفطاره في دمشق، وغداءه في الإسكندرية، وأن يتناول العشاء في إسطنبول.

حفظته جميع الأبواب والعتبات، فبمجرّد أن يدخل إحداها حتّى تسمع تهليلات وسلامات بلكنات عربية مختلفة أو بالتركية أو بالألمانية من أصحاب الحوانيت، وقد وقفوا يصافحون العميل الدائم بحفاوة وترحاب.

هكذا ابتعد عن كلاوديا شيئًا فشيئًا. انشغلت هي بالعمل، وأصبحت مديرة صغيرة في إحدى المصالح الحكومية التي تعنى بشؤون الهجرة. وانشغل هو بالماجستير ثم بالعمل بنصف دوام في إحدى الجامعات الصغيرة كمحاضر للغة العربية. كان يساعدها في رعاية وتربية ابنتهما خديجة، والتي أنجباها بعد عامين من هجرته.

كبرت خديجة، فكبرت معها مشاكله. لون بشرتها الداكن، الذي ورثته من والدها، امتزج بنقاء ونعومة جلد أمها، وشكّلاَ مخلوقًا بديعًا يسرّ الناظرين. عربيّتها التي تعلّمَتْهَا من أبيها تداخلت في ألمانيّتها التي أرضعتها لها أمّها، دخلت عليهما لغات أخرى كثيرة ولهجات مختلفة انتشرت في الطرقات، وفي رياض الأطفال، وفي النوادي والمتاجر.

قارن سامي بين طفولتها وبين طفولته. فيما كان يتعلّم اللغة العربية فقط في سنوات تعليمه الأولى، كانت ابنته خديجة في نفس عمره تتحدّث بلغتين وتكتب بلغتين وتسمع لغات شتّى. حينما كان لا يرى حوله غير أبناء جلدته، كانت ابنته تجلس في المدرسة جوار فتاة هندوسية، ويساعدها في مشروع صغير في الفصل الدراسي صبي ياباني وآخر روسي. عندما كانت تلعب في فناء المدرسة، كان يشاركها اللعب أطفالٌ من جميع جنسيّات العالم. وربّما من هذه

الزاوية أثبتتْ كلاوديا صدقَ روايتها حول "مواطن العالم"، الذي يلغي أي حدود تمنعه من مصافحة إنسان لا يختلف عنه في الجوهر، وربما اختلف في المظهر. نشَأَ سامي في مجتمع أحادي اللغة والمزاج، بينما شبّت ابنته في مجمع للّغات.

لم يكذب في ما أخبر به زوجته. لقد رحل عنها ليبحث عن ذاته. ربّما ليبتعد قليلاً، لكي ينظر إلى الأمور من موضع بعيد.. ربّما ليراجع حساباته، ويصل إلى قرار يحسم فيه موقفه من كل هذه الصراعات التي تحرق صدره.. ربما ليستكشف في رحلته الأبدية مسارات أخرى تمنحه طاقة تساعده في مواصلة هروبه إلى داخل كلاوديا وعالمها.. وربّما أراد فقط أن يخلو بنفسه، كما كان يفعل في حجرته الصغيرة في بيت جدّه، والتي اهتزّت جدرانُها في ليال طويلة، قضاها يتهل بأوراده التي تلقّاها من شيخه.. وربّما كان سفره خلوةً أخرى، أراد فيها أن يعتكف على نفسه، ويصوم عن الكلام مع ماضيه، حيث كانت كلاوديا ومحيطها جزءًا صغيرًا منه، وليس كله.

نيويورك

مساء 21 من يناير 2010م

اقتربت الساعة من الخامسة مساءً. يجلس سامي حائرًا بين خطابات كانون الثاني 1759م، وبين رسائل كلاوديا. انتهى من قراءة ما يزيد على نصف مذكرات أنطوان خير الشيّقة. وبدأ يقلّب في الخطابات الأخرى. رغم ما جاء في رسالة زوجته من كلمات هاجمته فيها، ووصفته بأبشع الصفات، غير أنه ظلّ يقرأ لوقت طويل، حاول خلاله أن يحلّ طلاسم الخطابات القديمة، التي بدت لغتها صعبة على فهمه.

خطابات بالعربية المصريّة والعربية الشاميّة والعربية المغاربيّة، وكذلك الإسبانية والإيطالية، وحتّى باللغة العبريّة. تختلف الرسائل في لغتها، ويجمعها موضوع واحد. تتباين الوجهات، التي كان من المفترض أن تصل الخطابات إليها، ما بين القاهرة ودمشق وإسطنبول وعكّا وفالنسيا ومرسيليا. بينما تتماثل في أسماء البضائع، وفي أسماء ربابنة السفن التي سوف تحملها إلى غايتها، وفي نوع الورق، وفي لون الحبر. الخطابات كالبشر، تختلف في مظهرها، وتتشابه مضامينها.

لفت انتباهه خطابٌ كُتب بخطّ جميل، مغاير للخطابات الأخرى التي كتبها التجّار على تعجّل في الميناء، والتي بدت فيها كثيرٌ من

الجمل المكرّرة والعبارات الناقصة والكلمات غير المنقوطة. أمّا هـذا الخطاب الفريد، الذي وقع تحت يده فيما هو يقلّب سريعًا في أكثـر من مائة خطاب، فقد كُتب بعناية وجمال وفنّ.

كان الخطاب من راهب في كنيسة روما، يصف فيه مرفقـات لخطابه قد ضاعت للأسف ولم تصل إلى أيدينا. ظلّ الخطاب فقـط شاهدًا عليها واصفًا لها. أرفق هذا الراهب بالخطاب كتابًا وصـورةً للعذراء مريم رسمها فنانو إيطاليا، وفيها من الجمال ما يناسب فترة ما قبل عصر الفنّ الباروكي. جاء في الخطاب، كذلك، ذكرٌ لمسـبحة خرزاتها زرقاء، ويتدلّى منها صليب من الذهب الخالص.

وقع بصره، كذلك، على خطاب آخر مؤرّخ بتاريخ 15 جمـاد الأوّل عام 1172 هجرية، مُرسل لتاجر مسلم يُدْعَى إسماعيل جميعي. يبدأ بالبسملة وبالتحية والسلام، وفيه:

"إلى جناب الأعزّ المحترم سيدي الحاج إسماعيل جميعـي، دام الله بقاه. بعد مزيد كثرة الأشواق إليكم، لا يخفاكم قبل تاريخـه توجّـه لطرفكم مركب القبطان جرجيو بانوفيسك، وأرسلنا لكم صـحبته مكتوب، وضمنه قايمة بعلم صافي الجلد الجاموسي الـذي بـاسمكم، وصحبته أيضًا أرسلنا لكم صرّة غلاق صافي الجلد جميعـه، انشـاالله يكون وصل بالسلامه وتكونوا اتطلعتوا عليهم بخير، وتتسلموا الصرة في يد هليفي الوكيل اليهودي، وتعرفونا بوصـولها وتشـطبوا عنـا حساب القلتم".

وبالحروف العبرية رأى خطابًا كتبه تاجر يهودي في ليفورنـو باللغة العربية بلهجة مصرية ممزوجة بكلمات عبرية إلى شـركائه في

الإسكندرية. جاءت في الخطاب أمور التجارة نفسها.. وكذلك أسماء البضائع المتداولة في ذلك الحين.. جلد الجاموس والعصفر والجوخ والحرير والشمع الأصفر والأحمر واللبان العربي.. مشاكلها، وقلقها، وفرحة مكاسبها.. دعاء كاتب الخطاب بزيادة الرزق هذا العام.. سلامات وتحيّات إلى الأصحاب والإخوان.. عبارات التهاني هي هي.. كلمات المواساة في الأحزان هي نفسها.. اتّفقت جميعها في ذكر الله وفي صفاته.. يقول المسلم والمسيحي واليهودي "انشالله"، إذا تحدّثوا عن المستقبل.. ويقولون "ربنا يسّهل"، إذا تمنّوا. و"حسب تساهيل الباري"، إذا شكّوا.. و"طال الله بقاكم"، إذا دعوا لأحد بطول العمر.

ترك سامي الخطابات.. ترك كذلك الغرفة الزجاجيّة الضيّقة.. غادر بعدها المكتبة.. وأراد أن يغادر العالم أجمع. انطلق في الشارع.. يسير لا يعرف وجهته.. ذاب في الناس كالثلج يذوب في الماء الساخن.. اختفى شبحه في أضواء المحلاّت والأعمدة الكهربائية، شديدة الإضاءة، وكأنّه طيفٌ لا يُرى إلاّ في الظّلام.. تراءت له عينا خديجة في زجاج المتاجر الكبيرة، وقد امتلأتا بالدموع.. ظهر له طيف كلاوديا غاضبًا وحانقًا للغاية.. رأى كأنّها تجرّ خديجة من يدها الصغيرة بشدّة، كي لا تطيل النظر إلى وجه أبيها.

ضاقت عليه الشوارع الواسعة، وشعر بدوار مفاجئ، فقرّر أن يجلس في أحد المقاهي. طلب فنجانًا من القهوة وشطيرة بالجبن، كعادته. بعد قليل، ظهر شاب من أصول أفريقية، يحمل حقيبة طويلة مستطيلة. فتحها بعد أن وضعها على أرض تطرّزها حجارة متراصّة

بإتقان. أخرج منها جيتارًا. خلع قبعة حمراء كشفتْ عن شعر مجعّد، ثم وضعها على الأرض أمامه بعناية. أمسك بالجيتار وأخذ يترنّم، ثم شرع بعدها في الغناء.

كاد سامي أن يطير من مقعده من فرط جمال ما سمع. بعد مدّة وجيزة التفّ الناس حول الشاب البارع في جماعات.. زوجان شابان من شرق آسيا.. رجل مسنّ يمسك بعكّازه ويبدو عليه أنه من أصول لاتينية.. كثير من الأفارقة.. امرأة تضع شالاً كبيرًا حول عنقها.. امرأة أخرى تضع خمارًا وتجرّ عربة أطفال.. بدا الجميع متصالحين.

عزف الشاب موسيقى تجمع بين وهج أفريقيا وصقيع أمريكا. فأنتجت موسيقاه مزيجًا رائعًا يجول العالَم ويغوص في لغاته وثقافاته، وكأنّه خيط دقيق يجمع خرزات الناس من شتّى الألوان والأحجام والأشكال. نظر سامي إلى الناس يلتفّون بنصف قُطْر حول المغني الماهر، فتمنّى أن ينضمّ إلى الجمع حتّى يصير نقطة صغيرة تكمل شكله الهندسي، فلا تشذّ عن الخط العريض الذي يتجمّع عليه ملايين البشر.

ليكورنا

آذار 1755م

لم تتغير كرستينا طيلة فترة حياتي معها. تغير شكلها، وتبدّل قوامها بعض الشيء، ولم ينضب حبّها. كان كبئر عميقة، لا قرار لمائها، ولا نهاية لعطائها. بل ازدادت في كل يوم قضيته معها وَهَجًا وتشويقًا. عندما كنت أنظر إلى عينيها الخضراوين، بعد يوم عمل طويل في الميناء الصاخب، كنت أتخيّل أنني أسير على ضفاف نهر قاديشا، وكأنّي أراه وهو يشقّ طرابلس قادمًا من الوادي المقدس. كيف لا، وفي عينيها أخدود أعمق من وادي قاديشا نفسه، وأكثر قداسة منه.

منذ أعوام طويلة قبل ارتحالي المفاجئ عبر البحر تاركًا طرابلس الشام، عشتُ في الوادي المقدّس ناسكًا عابدًا. وما زالت آثار الطبيعة الخلّابة تترك إلى اليوم في ذاكرتي تمثالاً جميلاً منحوتًا بعناية، كجسد كرستينا. كنت قد أوشكت أن أنسى الوادي، وأنسى لبنان، لولا أن ذكّرتني بهما حقولُ الليْلك في الأخدود الأخضر الرائع الذي وضعه الرب، تقدّس اسمه، في عينيّ زوجتي. كقدّيسة طاهرة كانت تسائلني كلّ يوم عمّا فعلته في يومي الطويل، فأرتاح على صدرها إذا بحتُ، وتلقي عليّ سكينةً عندما تضمّ رأسي بحنان إليها.

طويلاً انتظرنا روحًا ثالثة تخرج من بيننا لتملأ فراغ حياتنا، فلم يعطنا الرب هذه المنحة. لحكمة يعلمها، أراد الربّ أن تكون زوجتي لي وحدي، لا يشاركني في حبّها طفلٌ أو حفيد. لمرّات عديدة لاحظت ذلك الحزن يتسلّل إلى أخدود عينيها، رغم محاولاتها الدائمة إخفاءَ ذلك عني، خلف ابتسامة كبيرة.

جرّبنا كلّ أنواع العطارة الشرقيّة لعلاج العقم، دون فائدة. فبعد زواج كرستينا الأول، وزواجي أنا بها، صار من الواضح أن هنالك خطبًا ما، يحرمها من متعة أن تحمل بين يديها طفلها الأوّل. حاولتُ أن أقنعها بأنّه لا يهمني إن استطعنا أن نرى نسلنا أم لا، طالما أننا نتشارك الحياة سويًّا. كنت أقول ذلك وفي قلبي غصّة، لا لأنني كنت أتمنّى ولدًا يحمل اسمي، وإنّما لرغبتي الشديدة في أن أرى كرستينا أخرى صغيرة، تشبه والدتها وتملأُ حياتي حبًّا وطمأنينة.

في بيتنا الجميل، الذي يقبع فوق تلّة ليست بالشاهقة ولا بالمنخفضة عن أرض ليكورنا، زرعتْ كرستينا أنواعًا مختلفة من الزهور والنباتات، التي أعرف القليل منها. امتلأت الحديقة، التي جعلتها زوجتي تستقبل الضيوفَ إلى منزلنا، بالتيوليب والليلك. استخدمت نباتات الورود المتسلّقة في تغطية جدار البيت الحجري من الخارج بألوان شتّى، تنوّعت بين الأبيض والأحمر والبنفسج.

بعدما تزوّجنا بقليل، باعت كرستينا بيتها القديم، واشترينا هذا البيت الهادئ بعيدًا عن ضجّة ليكورنا، وميادينها، وزحامها. صنعت

من البيت الجديد جنّة تليق بملاك مثلها، واستخدمتني معاونًا لها في حقلها الصغير. كنت سعيدًا بهذا الأمر للغاية.

أتى آذار، وأوشك الربيع على المجيء بجميع ألوانه وروائحه وأنواره، كالبهلول يأتي إلى الحي فيرسل الألوان والعجائب والفرحة في قلوب الصغار والكبار.

من البذور التي استخرجناها سويًّا من نباتات الموسم الماضي، كنّا نجهّز بها شتلات الموسم الجديد. نضع بذرة أو بذرتين في رحم الطين المبلّل بالماء، ونتركها في الوعاء، حتّى يضع الله فيها الحياة. نراقبها بحرص في رحمها الجديدة، حتّى تخرج منها وريقتان، ثم تتبعها وريقتان، ثم يصوّرها الخالق في أحسن صورة.

تكبر زرعتنا، فنضعها في إناء أكبر، حتّى يتسّع لتمدّد جذورها. فإذا بلغت أشدّها، أخرجناها من إنائها الكبير، ووضعناها في أرض الربّ، المجد لاسمه، يرعاها كيف يشاء. ولكنّنا لا نتركها، نحيطها مراقبة وتربية وتشذيبًا وتهذيبًا، حتّى تعتدل في طريقها عندما تنمو فروعها صاعدة إلى السماء. وربّما نالنا الأذى من شوكها وأوراقها وأطرافها وتمرّدها. ولكنّا نعالجها ولا نبالي. فلو رعيناها، لأثمرت وأينعت وأورقت. وإن تركناها وأهملنا في حقّها، لتهاوتْ وشحبتْ وفسدتْ. الإنسان كالزرع، والزرع كالإنسان. هكذا وجد كلانا متنفّسًا وعوضًا وبديلاً عن الذريّة.

جلب لي دانيال ذات يوم بذرة لشجرة الياسمين العربي. كان أكثر المتردّدين على بيتي. وكان يرى في زيارته كيف كانت كرستينا تُقدّس الزروعَ واللونَ الأخضر. أحبّ رائحة الورود التي كانت

تستقبل أنفه عند باب المنزل. فأراد أن يهديها بذور زهـــرة شـــرقيّة لتكمل بها مجموعتها الأنيقة. شكرناه على هديّته، وفرح قلبـــي أنّ نبتة شرقيّة سوف أزرعها مع زوجتي في بيتنا.

على الرغم من قلقي ألاّ تتكيّف الياسمينة الشـــرقيّة في منفـــاي الغربـــي، إلاّ أن النبتة الصغيرة، التي ضربت جذورها في أرضٍ غريبةٍ، أبْهَرَتْ كرستينا، وأبهرتني.

بعد أن اكتمل نموّها بعاميْن، وقفتْ شجرةُ الياسمين صـــامدةً في وجه نسيم البحر أمام شرفة حجرة نومنا. في الصيف، كانت تصـــدّ عنّا شمس ليكورنا القويّة. وفي الربيع، كانت تعطّر سريرنا وملاءتنـــا وهواء غرفتنا بأجمل رائحة. كانت شجرة الياسمين الشـــرقية تكوينًـــا فريدًا، يجمع بين أصالة الشرق، وبين نسيم الغرب. يجمـــع اهتمامنـــا وقلقنا وفرحتنا ونشوتنا بهذه الفتاة الجديدة، التي جاءت كبذرة مـــن أقصى الشرق، لتضرب جذورها في أرض الغرب، وفينا.

نيويورك

صباح 22 من يناير 2010م

حدّق سامي لساعة أو ساعتين إلى صفحة الماء في حديقة بروسبيكت بارك ببروكلين. كلّما هبّت ريح لطيفة، تحرّك الماء الآسن في البحيرة التي احتضنتها الحديقة الكبيرة، وحرّكت كذلك ماءً راكدًا في بحر ذكرياته.

عندما ابتعد عن قرية شارونة وعن مدينة دهب قاصدًا بلاد المطر، ظنّ أن قلبه، كصحراء كبيرة، يمكنه أن يبتلع أمطار أكبر سحابة في الكون. بعدما اصطدم بأوّل سيْلٍ في مهد رحلته المغامِرة، غَرقَ في محيطٍ كبيرٍ من أمطار المنفى. تضاءلت حينها رمالُ صحاريه، حتّى أنّه لم يعد يميّز، بعدها، بين اللون الأصفر واللون الأبيض، لون الثلوج في بلدة كلاوديا.

لا يتذكّر متى دَبَّ الضّجرُ في قلبه، وأرّقَ فكره، وزَلْزَلَ حكايته. لم تتغير زوجته. ظلّت على حالها كما كانت أوّل يوم التقى بها. فحبّها ظلّ رتيبًا على موجة واحدة، لا يعلو ولا ينخفض. ثابت جسدها على وتيرة واحدة، فلا يسمن ولا ينحف. يدقُّ قلبُها بمعدّل ثابت، فلا يسرع ولا يبطئ.

أمّا سامي، فهو مزاجيّ السرائر. يأكل بشراهة متى غضب،

فيسمن. ويمتنع عن الطعام بالكليّة عندما يزداد حبُّه، فينحف. وهو على هذا الحال في تذبذب وقلقلة، فلم يأتِه اليقين.

في صباح يوم الاثنين من كلّ أسبوع، يعانق رفيقات العمل من السيدات، ويصافح الرجال. في ظهيرة يوم الجمعة، لا ينسى أن يدسّ مسبحته في جيبه عندما يذهب إلى المسجد. وفي المساء يذهب صحبة زوجته إلى أحد البارات، فتشرب هي الخمرَ، ويسكر هو بالنظر إلى عينيها. وربّما تأخذه حالة العشق حينها، فيجذبها من يدها بقوّة، ويراقصها في قاعات الديسكو الصاخبة.

اقتنع لأعوام عديدة أن أفضل طريقة للعيش في المنفى، هي نسيان المنفى. تناسى فضَلّ. أفاق على حقيقة أنّ قلبه لن يقدر على امتصاص مطر الغياب، مهما حاوَلَ وحاول، حتّى وإن كانت الصحراءُ حجمَ عالمه، ومِلْءَ يمينه، ووِسْعَ معرفته.

بعد شهرين من وصوله إلى ألمانيا، اصطحبته كلاوديا إلى رحلة لمنتجع أوبرفيسنتال على الحدود مع دولة التشيك. لأكثر من خمس ساعات جلس كلٌّ من سامي وزوجته متلاصقين، وكأنّهما نسيجٌ واحدٌ لا يختلف عن كراسيّ الحافلة المنسجمة مع ألوان الشتاء القاتمة.

كان الوقت من العام ما زال مبكرًا لتوقّع هطول الثلج، فشهر ديسمبر كثيرًا ما يحتار في انتمائه بين الخريف والشتاء. بدت الأشجار أقلّ خفّة مما كانت عليه قبل ثلاثة أشهر، يوم أن دخل سامي بلدة كلاوديا أوّل مَرَّة. حينها تلوّنت الأشجار بالأحمر والبرتقالي والأصفر والبنفسجي، واختفى اللون الأخضر تمامًا. لجَهْلِه، ظنّ في بداية الأمر أن أشجار هذه الرقعة من العالم لا تعترف باللون الأخضر ولا تفضّله.

لاحظ خلال رحلة الحافلة، أن الأشجار قد تخلّتْ عن ألوانها الخلاّبة، التي رآها فور وصوله إلى منفاه. بدت كأشباح سوداء أو بنيّة اللون، تسكن في أرض خربة. لم يكن في الطريق أيّة دلالات على حضور الثلج، غير أنّ الأرض المتجمّدة، التي أحاطت بأسفل الأشجار وأطبقتْ عليها كالسباع تقبض على أعناق فريستها، كانت دليلاً دامغًا على قرب قدومه.

كلّما اقتربت الحافلة من أوبرفيسنتال، ظهرت آثارُ الثلوج وتزايدت. تكوّمت النقاط البيضاء في البداية، وتجمّعت فوق أغصانٍ خلَتْ من الأوراق، واستبدلتها بكريستالات من الذهب الأبيض، كما كانت كلاوديا تشير إلى الثلوج بهذا الاسم. رغم الدّفء المنبعث من جسدها وهي تلتفّ بكلتا يديها على ذراع سامي المنتفخ وتستند برأسها الصغير على كتفه العريضة؛ غير أن مشهد الثلوج قد اخترق قلبه، وأصابه بالقشعريرة، عندما رأى أن الثلج قد تفاقم خارج نافذة الحافلة، وغمر الأشجار والطرقات، وابتلع بيوتًا نائية صغيرة، تناثرت من بعيد على جانبي الطريق.

عندما وصلت الحافلة أخيرًا إلى القرية الحدودية الصغيرة، كانت درجة الحرارة فيها 18 درجة مئوية، تحت الصفر. تصرّفت كلاوديا كالعارف بالمكان، بينما جالت عينا سامي في المكان الأبيض منبهرتين بكل تفاصيله الصغيرة والكبيرة. جبال شاهقة غلّفتها أشجار الصنوبر، تتخلّلها أراضي واسعة ممتدّة من اللون الأبيض كاد بياضه أن يعمي الأبصار. شمسٌ ساطعة وسماءٌ زرقاء صافية لم تؤثر في تماسك الثلج وعناده، وغاصت فيه أقدام سامي وزوجته.

ذهبا إلى مطعم صغير فوق أعلى قمّة من قمم الثلج التي أحاطت بالقرية الصغيرة. في المطعم المتواضع، جلس ينظر من نافذة صغيرة تطلّ على فراغ الجبل ووحشته. سمك يشبه السردين لا طعم له ولا رائحة وضعته النادلة أمامه. حينها طارت من بعيدٍ رائحةُ السمك "البلطي"، الذي كانت تطهيه الجدّة في الزيت قبل العديد من السنين. وصلت الرائحة إلى أنف سامي عابرةً للمكان وللزمان. استقرّت في أنفه، وجلبت معها أبخرةَ الطهي الملتهبة، وحرارةَ مطبخ متواضع زادتْ من سخونة الجو في صيف قريته على ضفاف النيل.

بعد أن انتهت كلاوديا من الطعام، بدأت تلقنه أوّل درس في تعلّم ركوب الثلج. مثل طفل صغير لم يبلغ الفطام، تمايل متراقصًا على الزلاّجة، التي أرغمته على امتطائها.

في طفولته، لم تكن تجربته في التمرّغ في أمواج الرمال صعبةً بالمقارنة مع محاولته هذه لركوب الثلج للمرّة الأولى. ربّما لأن وادي النيل، الذي تعلّقت به قرية شارونة منذ مئات السنين، قد شارك في تحصين قلبه ضدّ الخوف من الرمال. وربّما لأنّ رمال الصحراء المجاورة للوادي الهادئ سهلة المراس، مقارنة بحبّات الثلج الزَّلِقَة التي جرّته إليها كلاوديا. وربّما لأنّ وهج الرمال القريب من قرية شارونة كان أقرب إلى قلبه من صقيعٍ يغلّفُ قلب زوجته وبلدتها.

لا يتّهم سامي زوجتَه بأنّها هي التي خطفته بالقوّة من عالمه "الطوباوي"، ولكنّها لا تدرك أيضًا أن "ذاته" التي يبحث عنها تقع خارج نطاق تفكيرها الجامد، وبعيدًا عن حدود معرفتها السطحية.

بين حرارة الوادي القديم وبرد الحاضر الجديد، يبحث سامي عن مخرج لضجره الطارئ. لن تقدر كلاوديا على تفهّم هذا أبدًا، وعليه أن يجد مخرجًا. فرسالتها الأخيرة أكّدت له أن الهوّة بين عالمها وبين عالمه اتّسعتْ فجأة، رغم محاولاتهما طيلة أعوام عديدة سدّ غورها وترقيع أعماقها.

ليكورنا

نيسان 1757م

كَبُرَت شجرة الياسمين أمام نافذتنا، فكبر معها حبّنا، وقلّ بالتدريج أملُنا في ذريّة تحمل اسمي، وترث أموالنا. كنت أراقب الحزن في عيني زوجتي، رغم ابتسامتها التي ما فارقت وجهها الندي. شعرها الذهبيّ زادته نورًا خصلةُ شَعْرٍ بيضاء، أهداها الزمانُ لها مباركةً منه على بلوغها عقدها الرابع. بدت الخصلة مثل تاج من الماس زيّن رأس كرستينا، فزادها قداسةً وجمالاً وهيبة. وزادني خوفًا من انفلات عقود الدهر، وجريانها دون أن ندري.

بالغتُ في الارتماء في حضنها كلّما ألفيْتُها في صباحي تعدّ ليّ الفطور، أو في المساء عندما تحلب ليّ فنجان القهوة وأنا أفحص سجلاّت الحسابات اليومية. بالغتُ في ضمّها إلى صدري، وكنت أشعر أنه لربّما قرُبت نهاية رحلتي معها، لا أدري لماذا راودني هذا الشعور. عاهدت نفسي إنْ رحلت عنّي كرستينا، كما فَعَلتْ أمي مِن قبل، سوف أترك الميناء الصاخب، ثم أهيم على وجهي ثانيةً، مثلما فعلتُ في الشام بعد أن ودّعت حياة الرهبنة.

كمتمردٍ مثلي عاش حياته قبلها رافضًا كل شيء، كان من الصعب عليّ أن أستوطن حضن امرأة واحدة. غير أن كرستينا لم

تكن أبدًا امرأةً واحدة. كانت قديّسة في الصباح يغمر ضوؤها بيتَنا الصغير. وفي النهار مزارعة ماهرة، تقطف الورود، وتقلّم الأشجار، وتجمع ثمار الفاكهة والخضروات التي زرعتها في حديقة صغيرة أمام منزلنا، وفي قلبي. وفي الليل، تتحوّل إلى هرّة متوحشة في سريري. وفي كل الأوقات، لم تترك عقلاً راجحًا إلاّ واعتمرته وزيّنت به رأسها منذ اليوم الأول من عثوري عليها.

لم تدع لي فرصة واحدة لأفكر في غيرها. لكن عندما كانت تتغيّب عن البيت لتزور أختها الوحيدة في الروما، كان يأتيني شيطاني القديم في غيابها ليحرّضني من جديد على الرحيل. فالفراغ والشيطان لا يجتمعان في قلبي إلاّ وتكون النتيجة مفجعة.

في ميناء ليكورنا كاد الفراغ يختفي، فلا أرى له أثرًا أو شبحًا وسط أصوات السفن، وضجّة الحمّالين، ومزايدات البضائع، وعراك التجار. وعندما ينزوي الفراغ، ينصرف الشيطان يبحث عنه لكي يجلبه إلى عقلي. فالفراغ من الشيطان، والشرّ من الفراغ.

لم تشغل أنثى قلبي من قبل مثلما فعلتْ كرستينا. لذلك آليت على نفسي إن رحلتْ عني سأستسلم لشيطاني لا محالة.

كثيرًا ما تساءلت لماذا لا يرحل دانيال يومًا ما؟ فبعد رحيل زوجته وابنته من بعدها، لا تربطه بهذا المكان حبيبةٌ، أو ابنة أو بيت. فلماذا لا يترك ضجيج الميناء، وضجر السفن، ونواح المراكب، وعويل الرياح؛ فيرحل إلى أي مكان آخر؟ ما هو الشيء الذي يدفعه إلى احتمال كل هذا العناء هنا، فيما يستطيع بكلّ سهولة أن يرحل الآن إلى مكان أكثر صمتًا وبساطة، لا سيّما

بعدما امتلك رأس مال مناسبًا. زحام الميناء وضجره يناسب أمثال يوسف بكتي، وأمثالي.

شخصيّات مختلفة جلبها البحر إلى هذه البلاد البعيدة. حكى لي دانيال عن ديمتري. شاب في الثامنة عشرة من عمره. أرسله والده إلى عمّه يوسف بكتي لكي يشرف على تربيته وترويضه. كثُرَت مشاكل ديمتري في وكالة العائلة بمحروسة مصر، فرأى والده في الرحيل حلاً أخيرًا لتقويم اعوجاج ابنه الوحيد. غير أن الرحيل لا يصلح بأي حالٍ للتقويم والتعديل. بل إنّه يضيف في كثير من الأحيان إلى المعتدل اعوجاجًا، وإلى السليم فسادًا. وهذا ما كان من أمر الفتى.

كان ديمتري طاووسًا في حلّة إنسان. وكما قال بكتي عندما سألته عن أمر الفتى:

- "احنا عاملين معاه كل حنيّه واجتهاد فيما ينفع نفسه وجسده لأجل عرض أبوه وعِمَامه. ومطوّلين بالنا على حدّ الإمكان، وبنقول لمّا يعمل نقص ما في بأس، للسَعَا ولد وما يدرك، إنما شويه وشويه يعاود يدرك ويفهم نقايصه ويرتجع. ولاكن اللي ناخده عليه إن الكبريا والنفخه ساكنه في دمّه. ودا من طبع أمه".

رغم ما بيني وبينه من منافسة، كان آخرها وَسْقة الجلد الجاموسي التي سبقني إليها؛ فقد رأيت أن أساعده بالمشورة لِمَا رأيت من حيرته في أمر ابن أخيه:

- "يا بكتي هايدي البلاد بلاد مطلوقة، وإن الإنسان سيّب شيء قليل بيصير إلى شيء كبير".

- "يا أنطوان، أنا والله تعبان مع الولد من عـــدم اختضـــاعه، واللى أنا شايفه انو مفـــيش منـــه نتيجـــة، لأن الله ضـــدّ المتكبرين".
- "ارسل مكتوب إلى أخوك ياللي بمحروسة مصر، واحكيلـــه شو اللي صار، وأيش بده يعمل".
- "أنا منتظر جواب منه يا أنطوان، وأشوف الموضوع ينتـــهي على إيه!".

في خجل وضعف طأطأ رأسه قليلاً من الوقت، ثم نظر إليَّ وقد دارت عيناه الواسعتان، وتبلبلت شفتاه الغليظتان بعض الشيء. كـــان متردّدًا ومغمورًا في تفكير سحيق، وكأنّه ينتقي كلماته التالية بعنايـــة وحذر. تبسّم أخيرًا، وشكرني دون أن يزيد، ثم استأذن بالانصـــراف لمتابعة كاتبه، الذي كان يحمل الورق والمحبرة ويتهيَّأ لكتابة ما يربـــو على العشرين خطابًا، سيمليها عليه يوسف بكتي.

لا أعرف لماذا يرسل بكتي خطابات طويلة هكذا. ربما كـــان هذا سرّ نجاحه في تجارته. اختصر دانيـــال، كاتبـــي وشـــريكي، خطاباتي ومراسلاتي. استخدم جملاً قصيرة، لكنّها كالرماح، رشيقة وحادّة ولا تخطئ الهدف. لا سيّما إن خرجت من تحـــت أصـــابع كاتب بارع مثله. يعرف كاتبـــي كيف يمسك بـــالقلم، وكيـــف يقذف حبره على رقعة الورق الصفراء، فيحوّلها إلى خطاب يطمس به على عين من يقرأه. أمّا خطابات بكتي، فجاءت مثـــل وجهـــه، غليظة وطويلة وقاسية ورتيبة. في حين كانت خطابات دانيال رشيقةً وخفيفة، مثله.

مذ عرفت دانيال، أحببت فيه بساطته. عندما كان يتخفّى في زيّ صياد بسيط، لم تكن ملابسه الممزّقة، أو طريقة كلامه المتواضعة، لتنطلي على معرفتي بالناس من وجوههم. كان أنفه الدقيق، وعيناه البنيّتان الواسعتان، وقد ارتفع فوقهما طوْقان من الشعر الدقيق السبني مثل لون شعره المرسل؛ تشير جميعها إلى أن من يحملها لا بد أن يكون تاجرًا ماهرًا، أو قاضيًا عزيزًا، أو أميرًا مُقرّبًا من الباب العالي على ولاية كبيرة. وبعد أن انتشلته من موته المحقق إثر عودتي إلى ليكورنا، ظهر في الميناء كرسول طاهر من رسل المسيح، يَتهَدَّل الدهاءُ من وجهه، وتنهمر الفراسة من عينيه.

تعرّفت في المرفأ على أنواع من البضائع لم تلمسها يداي من قبل. فمِنَ الأقمشة، كان الحرير البَيَاسي والبيروتي والطرابلسي. تجنبت أن أظهر في الميناء للإشراف على تسلّم أكياس الحرير التي حملتها مراكبنا من لبنان. كنت أنيب عني دانيال في تخليصها والقيام على تخزينها وتقييدها في دفاتر حساباتنا، بعيدًا عن أنفي.

رائحة الحرير الطرابلسي، بالأخص، كانت تمتصّ هواء صدري كلّه في غرابة، وتأخذني في حالة يشقّ عليّ تحملها واسترجاع ذكراها. تذكّرني رائحة هذا النوع من الحرير برائحة جسد حبيبة، والذي جعلته لباسها الأوحد في جميع المرّات التي التقيت فيها بجسدها الغَضِير. تَوَحَّدَ جسدها والحرير الطرابلسي، فصاغا معًا تحفةً لبنانية أصيلة، لا يضاهيها عذوبةً ودهشةً وجنونًا أيُّ تمثال جميل رأيته في بلاد الروما من تلك التماثيل العارية المرمريّة. لم يغلبه أو يدانيه رحيقُ

أنثى قط، فيما عدا أسطورة إفرنجية قديمة أهداها الغرب إلى جسدي الشرقي في صورة ملاك، اسمه كرستينا.

تعرّفت كذلك إلى الرصاص، والقصدير، والنحاس، والحجر الأبيض، وشريط الصلب. أصبحتُ خبيرًا في أنواع الشمع. تذوّقت شتّى أنواع اللبان العربي، وكنت أميّز بين الصالح والفاسد منها من الرائحة فقط.

كان الميناء نقطة تجمّعٍ للعديد من اللغات والناس والألوان والروائح في مكان واحد. فالفلفل يأتينا من لوانده ومن فلمنك، ومن الشام يأتينا الحرير، ومن مصر الجلد والعصفر، ومن بلاد الهند تأتي التوابل.

اكتظّ الميناء بالأزياء المختلفة، والقبّعات المتباينة في الأذواق والألوان، واللغات واللهجات العديدة. غير أنّ البضائع على حال واحد، تُبَاعُ وتُشْتَرَى فقط بحسب جودتها، لا بحسب أصلها، ومن أين جاءت، وأي غاية تقصد.

تمنّيت أن أصير يومًا ما بضاعة، مثل تلك البضائع التي عجّ بها ميناء ليكورنا.. تمنّيت أن أصبح مثل شريط من النحاس الأحمر المرن.. يحملني صندوق خشبي مغلقٌ بإحكام.. أجلس منصاعًا في ذلك الصندوق، الذي يهتزّ ويتمايل بفعل موج البحر، فوق ظهر سفينة مبحرة إلى جهة لا أعلمها. وبعد رحلتي مجهولة النهاية، يصهرني أحدهم.. فيصنع مِنِّي إناءً للطعام.. أو مصباحًا ينير للناس ظلامهم.. أو مزهريةً تضع فيها سيّدة جميلة زهورًا قد جمّعَتْها من حديقة بيتها.. أو مبخرةً في خَلْوَةِ عابدٍ مقيم.. أو فانوسًا في قلاّية راهب لم يترك

بعد حياة الرهبنة.. أو أيّ شيء آخر غير صـــورة تـــاجر في مينـــاء غريب.. يطارده الماضي البعيد.. ويمزّقه الواقـــعُ الجديـــد.. ويؤرّقـــه المستقبل.. رغم امتلاكه المال والحب.

نيويورك

مساء 22 من يناير 2010م

عندما اقترب سامي في المساء من محل إقامته المؤقت، رأى من على مسافة زهاء مائة متر سيارةَ إسعافٍ أمام منزل فكتوريا. تنبعث الأضواء الحمراء والزرقاء من أعلى السيارة، فتخلع قلبه وتثير شكوكه. أسرع يمدّ خطاه مذعورًا، كأنّ أمه هي التي في البيت، وليست امرأةً تملك نزلاً يسكنُ فيه مؤقتًا. تذكّر في هذه الخطوات الحثيثة كلمة العجوز له في أوّل محادثة معها: "الحياة رحلة قصيرة". "هل انتهت رحلتك القصيرة يا فكتوريا في هذا المساء البارد؟" يسأل في قلق.

دخل البيت كالمجنون يستقصي الأخبار. لأكثر من مائة مرّة دعا ربّه ألاّ يسمع خبر وفاة العجوز، التي رغم طفوليّتها، فإنّه تعلّق بها. اقترب من حجرة نومها بخطوات سريعة متوتّرة. رأى مسعفيْن يقفان أمام سرير العجوز ويحجبان الرؤية. تستلقي فيفي حزينةً على طرف السرير تحت قدمي العجوز التي لا تتحرك. عندما التفت إليه أحد المسعفين، انكشف له منظر العجوز، وقد وضعت ضمادة بيضاء صغيرة فوق جبينها، وبدتْ عليها آثار التعب والإنهاك. أمسك يدها بلطف وضمّها إليه، ثم ربت على كتفها، التي شابه ملمسها ملمسَ قطعةٍ خشبيّةٍ خشنة.

- "لا تقلق يا مستر سامي، وشكرًا على اهتمامك".

قالت العجوز وقد لاحت على وجهها ابتسامتها المعهودة.

- "أرجو أن تكوني على ما يرام الآن يا سيدتي. ولكن أخبريني، ماذا حدث؟".

- "أحسست فجأة بالدوار وأنا في المطبخ، فما شعرت بشيء إلاّ وأنا ممدّدة على الأرض، واللون الأحمر يغطّي وجهي. اتصلت بالطوارئ، فأسرع الفتيان الشابّان الجذّابان في إنقاذي".

قالت وقد ازدادت ابتسامتها، وتحوّلت إلى ضحكة مكتومة لا تفتح فمها فيها، ثمّ أضافت وهي تنظر إليه، وفمها يضحك ويتكلم في الوقت ذاته: "إنني امرأة صغيرة، أليس كذلك؟".

شاركها الضحك، وقال لها:

- "بالتأكيد هو كذلك، أنت أجمل شابّة صغيرة في نيويورك رأيتها حتّى الآن".

ترك سامي حجرة فكتوريا وهو يواري نظرة حزن في ضحكات مصطنعة. عندما وصل غرفته، انفلتَتْ الدموع من عينيه على حال العجوز، التي تنتحب من الداخل، وتضحك من الخارج. لا بدّ أنها تسائل نفسها لماذا لم يتقدّم دورها في انتظار نهاية رحلتها القصيرة صباح ذلك اليوم عندما سقطت بسبب مرض السكر.

كان سامي قد تقابل اليوم بالصدفة في المكتبة مع البروفيسور مايكل. صافحه بحماس، وسأله عن مزاجه، وكيف كان يومه. سأله

كذلك عن عمله على الخطابات العربيّة التي أراده أن يقرأها، ويرفع تقريرًا له بعد ذلك عنها.

- "أتمنّى أن يكون التقرير جاهزًا في القريب".
- "سيكون كذلك".

قال وقبل أن يواصل قاطعه الأستاذ الأمريكي قائلاً باللغة العربية: "انشاالله".

ابتسم وشعر بالراحة في العمل مع رجل متفاهم مثل البروفيسور مايكل.

- "الخطابات تمثّل مادّة جيّدة لكتابة تاريخ التجّار في القرن الثامن عشر الميلادي. وأنا أستمتع بقراءتها للغاية في الأرشيف. لغتها غريبة بعض الشيء، ولكني أستعين ببعض القواميس القديمة، التي عاصرت فترة الخطابات، كي أفسرَّ ما فيها من كلمات غريبة".
- "حسنًا فعلت. سنجلس سويًا نناقش التقرير الذي تكتبه، وبعدها سنضع خطّة للعمل معًا على هذه الوثائق الشيّقة. ما رأيك؟".
- "بالتأكيد، امنحني مزيدًا من الوقت، وسأحرص على إنهاء التقرير".

هزّ مايكل رأسه بجديّة يبارك عمل سامي. وأخفى سامي حقيقة ما وجد من مذكّرات أنطوان خير، ولم يُطْلِع أستاذه الأمريكي عليها. أراد أن يكمل المذكّرات أولاً، ثم يرى بعد ذلك ماذا يفعل. فقد شعر بقدسيّة ما قرأه، واستحى من نفسه أن

يفضح أسراره التي حفِظها الدهرُ لأكثر من مائتين وخمسين عامًا.

لم تكن الخطابات التي حملتها السفينة هي كل ما يشغل تفكيره في هذا اليوم الطويل. رسائل كلاوديا المتلاحقة نزلت عليه كالصواعق واحدة تلو الأخرى. كان أعنفها رسالتها الأخيرة التي تكيل له فيها الكثير من التوبيخ والاتّهامات. وبرغم ما جاء في هذه الرسالة من لذوعة وشدّة، فإنّه رآها بداية انفراجة للمشكلة التي بينه وبينها. قليلاً ما كانت تخرج عن سلوكها العادي في مثل هذه الأزمات والمشاكل السابقة. وبالتجربة تعلّم أن لحظة انفعالها تلك، هي الفرصة المثالية لمصالحتها ونيْل رضاها.

ليكورنا

كانون الثاني 1757م

في يوم بارد آخر، في الميناء الذي لا يهدأ، مثلما لا يهدأ موج بحره، راقبتُ من بعيدٍ كيف يتعامل يوسف بكتي مع الكاتب الجديد، الذي لم يكمل عامه الأوّل في الميناء بعد. كعبد مملوك، تحمّل إبراهيم قسوته وفظاظته في التعامل. كنت أراقب وجهه الذي بدت عليه ملامح الضجر من سوء معاملة بكتي له. هزال جسده وقصر قامته أضافا إلى عينيه الآفلتين وحاجبيه السميكين ضعفًا على ضعفه. بدا مهزومًا ومضطربًا طوال الوقت، كالذي تطارده الشرطة في أحد الأسواق.

حركة الأمواج المتلاطمة أسفل الميناء تربكه. زحام الميناء في أيام باردة كهذه يستحثّ جسدَه الهزيلَ أنْ يتحرّك أسرع وأكثر رغبةً في التماس الدفء من الذات. ضجيج الميناء، واكتظاظه بالعاملين والحمّالين والبضائع والمسافرين، يفقده صوابَه. تمنّى في تلك اللّحظة أن يغمض عينيه ثم يفتحهما فيجد نفسه مطروحًا على سطح إحدى تلك السفن الكبيرة عائدًا إلى منزله. يا لبعد الرّحلة رغم حضور الوسيلة.

خمسة أشهر انقضت، وكأنّها المسافة الزمنيّة بين موجةٍ وموجة، كم مرّة ذهبَتْ الطيور ورجعت، وهو لّما يزل يجالس الصخور الناظرة

إلى المياه في ذهول وحيرة. ليكورنا.. اسم ارتبط لديه بذكرى الاغتراب. خمسة أشهر من الغياب تحفر في ذاكرته الكثير وتؤرّخ لرحلته الأولى إلى ما وراء حدود قريته الصغيرة التي تقع في دلتا النيل. انتقل من بيت دافئ صغير إلى بيت كبير بارد. من العوم عاريًا كطفل صغير في ترعة قريته إلى البحر الكبير. تعودّت عيناه على رؤية القلاع الكبيرة والسفن العملاقة، بعد نشأته في كنف قوارب الصيد الصغيرة، والمراكب الشراعية المزركشة بلون النيل ولون سمائه وشمسه. ضاق سمعه بزئير السفن وضجيجها، واشتاق إلى صوت الناي، الذي كان ينشد به ابن عمه أحلى الألحان، أعلى الهضبة الصغيرة المطلّة على فرع رشيد.

- "انته خلّصت المكتوب يا إبراهيم؟".

يسأل الخواجة يوسف بكتي كاتِبَه إبراهيم، الذي كلّفه منذ قليل بأن يكتب رسالة عاجلة إلى الإسكندرية.

- "لَمْ مُمْكِن يِخْلَصْ الطلب، اعطيني زمان مِنْشَان أكتبْ جوابْ لجميع المكاتيب دِى اللي متوجهة على دا المركب. يا ريّسْ مِنْشَان المحبّة والْعَدْرَا لَمْ تُواخِذْنِى".

يردّ الكاتب المصري المقرفص في أرض الميناء الحجريّة العتيقة، التي طالما ودّعت بضائع وأناس، منهم من وصل بأمان الى الشاطئ، ومنهم من ضاع في الطريق.

أوشك مركب القبطان فجيسكو باولو راكوزي على الإقلاع، وتفاجأ القبطان والبحّارة والحمّالون بطلب يوسف بكتي. أراد أن يرسل جملة ثلاث بالات من الفلفل، وبالة جوخ فرنساوي وكذلك

عدّة صناديق من الخشب، تحمل بداخلها القصدير والرصاص إلى الإسكندرية. كعادته غير المستحبّة، يفاجئنا بكتي بكل أنواع المواقف التي لا نفسّرها في وقتها، ثم بعد أيامٍ أو أسابيعَ نكتشف السبب الحقيقي وراء أفعاله الجنونية.

كان يستبق السوق في محروسة مصر، فقد علم للتوّ أن الفلفل والجوخ قد شحّت كميّاتها في الوكالات التجارية في المحروسة، فأراد أن يكون له السبق قبل بقيّة التجار. لا أعرف كيف تصلُ إليه هذه المعلومات قبل أي تاجر آخر في المرفأ. وبسبب هذه المفاجآت التي كانت ترهق الكتّاب السابقين، فقد توافد علينا أكثر من ثلاثة منهم خلال عامَيْن فقط. كان ذلك الكاتب المسكين الذي جاء من مدينة رشيد واحدًا منهم.

في ذلك اليوم، قرّرت أن أخطّط للسفر مع دانيال لمقابلة أكبر التجّار في الإسكندرية. كنّا نتناول العشاء في بيتي. أعدّت لنا كرستينا حساء بابالبو مودورو الذي اشتهرت به البلاد في طوسكانه وما يجاورها. وهو حساء ثخين من الطماطم المجروشة، والدقيق، وزيت الزيتون الذي كان يأتينا من إسبانيا، بالإضافة إلى الثوم والحبّهان. كما وضعت أمامنا صحافًا من الباستا وعليها صلصة مُعَدّة من الطماطم، التي جمعتها طازجة من حديقة المنزل. كان الطعام شهيًّا، وكذلك كان الكلام مع دانيال.

نصحني أن نوسّع علاقتنا بقدر أكبر مع تجّار من مصر إن أردنا أن نتفوّق على يوسف بكتي. فالرجل يسيطر على كثير من التجّار في الإسكندرية ودمياط ومحروسة مصر. كما أن لديه العديد من العملاء

في جميع الوكالات في مصر والشام. نصحني أن نبدأ بالإسكندرية، لمعرفته بها جيّدًا، وبحكم عمله السابق، وتعاملاته مع التجّار هناك قبل أن يغادرها. بعدها نصحني بأن نزور الشام أيضًا، كي نكسب الجديد من التجّار والعملاء. وافقتُ على الفور في ما يخصّ محروسة الإسكندرية، ولكنني سألته ماذا يقصد بالشام.

عندما أخبرني أنه يقصد مدينة طرابلس لبنان، زاغتْ عيناي وارتبك لساني واضطربتْ جوارحي. بدا على وجهي القلق، واحمرّت وجنتاي من فرط صعود الدّم سريعًا إلى وجهي. كنت كمن فعل جرمًا قبيحًا، وافتضح أمره بعد عشرة أعوام كاملة من الاختباء. وفي الوقت ذاته، انتابني شعور صارخ بالحنين إلى موطني، منبت بذرتي، ورحم أمي، وقداسة أبي. شعرتُ فجأة بالتّوق إلى لبنان عندما سمعته يذكر طرابلس، وكأنّ اسمها ضاع من ذاكرتي، وطار بعيدًا عن برجي يوم أن غادرتها هاربًا، وكأنما كان عقابي أن يمحي الغيابُ اسمَها من قاموس لغتي، ويستبدله بالمنفى.

رفضتُ بشدّة ما اقترحه دانيال بشأن طرابلس. نظرتُ إلى كرستينا وقد علا صوتي أصيحُ بغضب غير مبرّر، لا يتناغم مع الموقف. استغربَ ردَّ فعلي، ولكنّه لم يضايقني بالسؤال. من خلفه أشارت إليَّ زوجتي بأن أوافق، فوافقت بسرعة. لا أعرف إن كانت موافقتي حينها محضَ اقتناعٍ منِّي، أم إرضاءً لها. وافقتُ، فشعرتُ من فوري بسعادة، لكنّها بطعمٍ مرّ.. بفرحة طفل يعود إلى أمّه بعد غيابٍ طويل، وبحزنِ عجوز تنتظر قضاء نحبها.. بنشوة عابد يختلي بربه، وبندم ناسك ترك رهبنته.

نيويورك

23 من يناير 2010م

عزيزتي كلاوديا،

لن تمنعيني من أن أقولها لك. أنت عزيزتي. لن أدافع عن نفسي، فقد صدمني ما تظّنين بـــي. لست أنانيًا كما تقولين، فقد ضـــحّيتُ بكل شيء، وتركتُ إرثي وحياتي ومـــوطني، ثم انتظمـــتُ أدور في مدارك. لو كنت أنانيًا، لَمَا جعلتك مـــوطني. أردت أن أبتعـــد، ولا أدري حقًا كم من الوقت سوف أظلّ على هذه الحالة.

تقبّلي تحيّاتي، ولا تنسي الأمانة التي حمّلتها لك بأن تقبّلي خديجة بالإنابة عني.

تحياتي.

سامي

23 من يناير 2010م

الإسكندرية

أيّار 1758م

حملتنا السفينة أنا ودانيال في عرض البحر من ليكورنا إلى الإسكندرية في يوم مطير. احتمينا من المطر في قمْرة المسافرين في جوف السفينة الكبيرة، والتي كانت تجاور قمرة القبطان بانوفيسك راجوزي.

انقضى عامان منذ بداية الحرب بين الإنكليز والفرنساويّة. ضاقت المعيشة، وغرق العديد من السفن. وما نجا منها من الغرق، تعرّض للسرقة من القراصنة بسبب أحوال الحرب، وضياع أمان البحر وسط الأجواء المضطربة، ولم تستطع أساطيلُ الباب العالي حمايةَ التجارة بسبب هذه الحرب. ذكّرتني هذه الأحداث الدامية بحروب الأمير حيدر الشهابي مع اليمنيين في الشام، والتي حكى لي أبي عنها كثيرًا عندما كنت طفلاً.

أبحرتْ السفينة، وتلكّأتْ في رحلتنا لمدّة تجاوزت الخمسين يومًا، حتّى بزغ لنا فنارُ الإسكندرية الكبير. كعمود من الذهب لاح لنا الفنار من بعيد. بدا لي كقلعة صغيرة تطفو على سطح الماء، يتوسّطها ويرتفع منها قائم مربع الشكل، يشبه مئذنة جامع البرطاسي في طرابلس. لم يخالفني الحظ لأرى ضوء الفنار، حيث وصلنا في وضح النهار.

بعد أن جاوزنا الفنار، الذي لم أر مثله من قبل، نزلنا إلى المرفأ. تشابه مرفأ البضائع في الإسكندرية مع مرفأ ليكورنا الـذي تركنـاه خلفنا. البضائع التي نرسلها والبضائع التي تصل إلى طرفنا هي هـي. بعض وجوه التجّار كانت مألوفة لنا، وكـذلك وجـوه القباطنـة والبحّارة، ولغات الناس المختلفة. غير أنّ مرفأ الإسكندرية قد غلـب عليه اللسان العربـي المصري، وطغى على بقيّة اللغات. مثلما طغـى اللسان الطلياني على بقيّة الألسنة في ليكورنا.

استَقْبَلَنَا في المرفأ برناركي اليهودي، وسيطُنا وعميلُنا المُخْلِـص في الإسكندرية. دلّني دانيال عليه. كان بينه وبين برناركي سـابق معرفة، عندما كان يعمل في الإسكندرية كاتبًا للتجّار اليهود قبـل رحيله. بدا على دانيال قلق كبيرٌ ونحن نصافح ونحيـي برنـاركي، الذي طالت معانقته لرفيقه القديم. لمحت دمعةً ثخينةً تكوّرتْ علـى وجنته، أسرع ليواريها عن عينيّ وعينيْ برناركي بأن وَلّى لنا ظهره، وكأنّه يحاول صرف انتباهنا عنه بأن يبعدَ وجْهَهُ عن ريحٍ هبّت من البحر فجأة. حدث هذا كلّه بعد أن سأل برناركي عـن زوجتـه، وعن ابنته.

بيده الغليظة، أطبق برناركي على كفّ يدي بقـوّة، وكـأنّي أمسكت بقطعة من حَجَر. لأعوام تبادلنا المراسلات التجاريّـة، ولم نتقابل. تخيّلت برناركي أطول قامة، وأنحف جسدًا. لكـني قابلـت برناركيًّا آخر، قصيرَ القامة وعريضَ الأطراف.

تابعنا نحن الثلاثة تفريغ حمولة السفينة، وسفينة أخرى انتظرناها ساعة حتّى وصلت. حرّرنا البوالص، وسجّلنا في دفاترنـا البضـائع

التالفة بفعل الماء وبفعل الشحن خلال رحلتنا التي دامت سبعة وخمسين يومًا بسبب أعمال الحرب. مائتا ليبرة من الفلفل الفلمنكي فسدتْ جرّاء حمل ثقيل من الصناديق الممتلئة بالرصاص والنحاس والقصدير، والتي مالت على بالات الفلفل عندما اهتاج موج البحر، ففسد بعضها، ونجي الحديد من البلل. ما صلح منها قمنا بتعبئته في أكياس جديدة من الجنفاص المتين، اشتراها برناركي من المرفأ. وما فسد منها قايضنا عليه ببضاعة رخيصة من الجلد الجاموسي السكندري، فحملنا قطع الجلد المقطّعة إلى السفينة مرّة أخرى، استعدادًا لرحلة العودة إلى ليكورنا، مرورًا بطرابلس.

لولا ثقتي بدانيال، الذي عاش عمره فيها، لَمَا صدّقتُ أبدًا أن الإسكندرية مدينة واحدة. على امتداد طريقنا إلى بيت برناركي، الذي لم يبعد كثيرًا عن المرفأ، مشينا بمحاذاة الشاطئ. رأيت كأنّي أسير في بلدان كثيرة مختلفة ألوانها وأُناسها وأجواؤها، وليس في بلدٍ واحدٍ يسوده شكل متشابه للبيوت والأماكن ووجوه الناس. لقد رأيت الروما، وطرابلس لبنان، وليكورنا، والإسكندرية في مكان واحد. لم أتجوّل كثيرًا في البلدان، غير أن وجوه الناس التي رأيتها في شوارع الإسكندرية كانت كافية أن تقنعني بأنّ هذه المدينة تجمعُ تحت سمائها أماكنَ من كلّ بقاع المعمورة.

مررنا بتحف وتماثيل وألوان وبنايات لم أجد لها مثيلاً إلاّ في الروما. وقد ظننت أن البديع كلّه في بلاد الروما. غير أن الإسكندرية بدّلت ظنيّ وقوّمته. بعد أن غادرنا الميناء الغربي للمدينة الخالدة، لاح لنا من بعيد عمود شاهق الارتفاع لم أرَ مثل طوله من قبل.

سألت عنه برناركي، فأجابني بأنّه عمود قديم يُدعى "عمود الصواري"، قد شيّده القدماء.

شعرت أن هذه المدينة كبيرة قدر الكون كلّه. وأحسست لأوّل مرّة بحجم ضآلتي. شعرت أن سماء الإسكندرية أوسع سماء رأيتُ فيها سحابًا. وأن سحبها أجوَد وأكرم من أي سحب قد رأت عيناي. وأن أهلها أذكى وأمهر من أي أناس عرفتهم. وحقًّا تمنّيت أن أنزرعَ في أرضها كشجرة ريحان، أو أن أصير تمثالاً رومانيًّا قديمًا في أحد ميادينها الواسعة، أو أصبح، على الأقلّ، صخرةً كبيرةً في مرفئها الساحر.

يعيش برناركي في بيت صغير مع زوجته وابنتيه. لا يختلف بيته عن البيوت المجاورة له في حي كرموس، المجاور لعمود الصواري. اكتسى جداره باللون الأبيض، وتلوّنت شرفاته باللون الأخضر الفاتح، التي شابهت أوراق أشجار الحي المتناثرة بين البيوت. دخلنا إلى ردهة البيت، وقد استقبلتْ أنوفَنا رائحةُ الطّعام، فشعرنا بالجوع فجأة، وكأننا نسينا أننا لم نأكل منذ الصباح.

وضعنا عمائمنا جوارنا على بساط متواضع، اكتست به أرضيّة غرفة الضيافة الفسيحة في الطابق الثاني من البيت. اتّكأْتُ على مسند وثير جلبه برناركي لي خصّيصًا، بعد أن لاحظ إرهاقي من تعب السفر.

كاد الطعام، الذي قدّمته زوجة برناركي لنا، أن يسرق لُبّنا. السمك المشوي المُتبّل بالثوم والفلفل الحريّف ألهَبَ أنوفَنا، وكنت أسمع أصواتًا غريبة تصدر من بطني الخاوي. الأرز المصري زيّنته

شرائحُ البصل وأكسبته لونًا يميل إلى لون الجِمَال، التي انتشرتْ حول منطقة الميناء تحمل البضائع. أكلنا، ورغم امتلاء معدتي بالطعام الشهي، إلاّ أنني واصلت الأكل في استمتاع.

في المساء ذهبنا إلى منزل الحاج إسماعيل الجميعي، والذي لا يختلف كثيرًا عن بيت برناركي. بيْد أن الحاج إسماعيل كان بيته أوسع من بيت برناركي. جعل ساحة الضيافة في الطابق الأرضي، وخصّص خادِمًا لضيافة الزوّار.

بكلتا يديه الدافئتين، صافحني الشيخ الجليل. أضاء وجْهُهُ، وأصبح كفنار الإسكندرية في ليلة مُحاق. تدلّتْ لحيته الصهباء، وقد لمعت في ثناياها شعيراتٌ ناصعةُ البياض. عندما صافحنا، تحوّل وجهه إلى طبق مستدير واسع يزخر بالابتسامات والابتهالات والمسرّات. من جميل استقباله لنا، تستريح السرائر، وتطمئنّ النفوس، وتعمّ الراحة.

أجلسني عن يمينه، وجلس دانيال عن شماله، وجلس برناركي أمامه. قدّم لنا خادمه الشايَ في آنية فخمة من الفضّة. تحدّثنا بشأن التجارة والشراكة لساعة طويلة. اتّفقنا على شركة بيننا، وشهد على العقد كل من دانيال وبرناركي ومحمود ابن الشيخ الجميعي.

شعرت أثناء الزيارة أنني كنت الغريب الجالس بين ثلاثتهم. لأعوام طويلة، قبل رحيل دانيال إلى ليكورنا، كان الثلاثة على اتّصال دائم بفضل التجارة، التي ألْغَتْ دياناتهم ووحّدتهم على كلمة سواء، كلمة البيع والشّراء.

كولونيا

مساء 23 من يناير 2010م

سامي،

لا داعي لهذه الطريقة في إرضائي، فقد مللت منها بالفعل. هذه هي رسالتي الأخيرة لك. لا تفكّر حتّى في الاعتذار مجدّدًا. ما زلتُ لا أتفهّم هجرك لي ولخديجة دون سبب منطقي أو مقنع. وأقول لك بكل صدق، لقد خاب ظنّي فيك، وأنا نادمة على حياة أضعتها معك. لا يهمني إن وجدت "ذاتك"، أو لم تجدها، فهذه الآن مشكلتك أنت وحدك، بعد أن قرّرتَ أن تغادر شراكتنا وحياتنا الجميلة، وتختفي في ظرف غامض.

تحياتي،

كلاوديا

23 يناير 2010م.

ملحوظة: أنا لست عزيزتك!

في الطريق إلى طرابلس

أيّار 1758م

لم نمكث في الإسكندرية غير سبعة أيّام، زرنا فيها العديد من الأسواق والتجّار والوكالات التجارية. اشترينا خلالها ما نحتاجه من البضائع كي نوسّقه إلى ليكورنا.

غادرنا الإسكندرية على ظهر مركبنا "السبع المذهّب" في شهر أيّار. كم وددت أن تطول إقامتي في الإسكندرية. وفي الوقت نفسه كنت أخفي عن دانيال فرحةً في قلبي لقرب موعد لقائي مع طرابلس، لقائي الذي تأجّل أربعة عشر عامًا.

بين هذا الشعور وذاك، كان يعصرني اشتياقي إلى حضن كرستينا، وإلى بيتي، وإلى شجرة الياسمين الشرقيّة، التي تتمايل مع نسمات الغياب أمام شرفة حجرة نومي، وإلى ميناء ليكورنا، وإلى زحام الناس وضجيج المراكب.

طالت بي الرحلة، فزاد الملل. أحاط الانتظارُ والترقبُ بمركبنا، وكأنّهما عُقابان يتربّصان بما سيتبقى من فريسة، وقد أحاطها ضرغام، ولا فرصة لها في الهرب من براثنه. ضاعت من ذاكرتي جميع اللحظات والمشاهدات السعيدة، التي استمتعتْ بها عيناي في الإسكندرية. شجنٌ غائر في القلب، عميقٌ بعمق وادي

قاديشا، اجتاحني وقيّد جوارحي وحواسي كلّها.

لازمت ربّان المركب وسامرته بالإيطالية. صاحبت الدّيدبَان الشامي، فصعدت معه إلى أعلى الصاري، وراقبنا البحر سويًّا، تحسّبًا لأي غارة من القراصنة. تودّدت إلى البحّارة، وتبادلنا الحديث والمزاح والهزار، فلم يتغيّر ما في داخلي من كَدَرٍ وغمّ. أحصيت البضائع وتفحصّتها بمساعدة دانيال. كتبت خطابيْن وقائمةً بالبضائع. فلم يساعدني كل ما فعلته على طرح هاجس التفكير في طرابلس من عقلي.

لم يهدأ هاجسي ويتوقف عن معاتبتي على رحيلي من لبنان، إلاّ بعد أن تراءتْ لي ملامح شاطئ طرابلس، بعد أربعين يومًا من الإبحار.

اجتاحني شعور بالحيرة، هل أدخل إلى كوخ طفولتي القديم أم لا؟ طارت من زمن بعيد جميعُ ذكريات أمي وأبي، ومثلتْ أمام الكوخ. تزاحمت أمام عينيّ، فشكّلتْ حاجزًا كبيرًا منيعًا. من فرط كثافة هذا الحاجز وضخامته، لم أتبيّن حينها موضع الباب، فلم أُبْصِرْهُ، و لم أدخل.

ما زالت السحابة الحزينة، التي تركتها أمي، تحبسني خارج الكوخ. صار ما خارجه سجنًا كبيرًا يحبسني ويمنعني من الفرار إلى ذكريات طفولتي. شعرتُ حينها بألم شديد في قلبي، وكأنّ حسامًا عثمانيًّا يحمله جندي انكشاري قد انحشر في قلبي، ونفذ من ظهري. أحسست أن لعنة الرحيل والفرار قد أصابتني، فحرمتني من الرجوع إلى عالمي القديم، يوم أن وَقَفَتْ هذه اللعنة حائلة بيني وبين دار طفولتي.

جلستُ خارج أطلال بيتي القديم. انتظرتُ طـــويلاً، لا أدري لأي شيءٍ تحديدًا، وإلى متى. عندما انفضَّ الحاجز الذي تشـــارك في بنائه فكري ومخيّلتي وذكرياتي، طلّ عليّ الكوخ وكأنّه شجرة قديمـــة دَارِسَة، لم يتبقَ منها غير آثار لجذع كبير تراكمت عليه الطحالـــب الخضراء والديدان وخيط العنكبوت. شعرت حينها كأنني أرى أبـــي وأمي يبكيان أطلالَ بيتنا الخَرِب في حسرة. هكذا غادرتُ المكـــان، وأقسمتُ ألاّ أعود مجددًا.

انتهى دانيال من تحميل المركب بالبضائع من طرابلس. فكـــان البنّ والحرير والعصفر من البضائع التي أخذناها معنـــا عائـــدين إلى ليكورنا. نادى النوتيّ على العمال والمعاونين أن يستعدّوا للسفر. اعتنى بدفع ثمن النوْلوُن في مرفأ طرابلس. وقفتُ عند مقدم السفينة ألاحظُ عمل الحمّالين والمعاونين، يأمرهم ربّان السفينة ويستحثهم على سرعة العمل.

نيويورك

ليل 23 من يناير 2010م

بالأمس رأى سامي في حلمه أنطوان خير. كان وجهه الأبيض، وملامحه الحادّة، وأنفه الدقيق، وشعره الأسود المرسل، تمامًا مثلما تخيّل في الحقيقة، أو هكذا بدا له. فما الأحلام إلاّ انعكاسٌ لما نصنعه بأيدينا في اليقظة. هكذا تخيّله، وهكذا ظهر له. جاء سامي في الحلم على هيئة عامل معاون على ظهر أحد المراكب التي أبحرت في نهر النيل بقيادة أنطوان خير.

رأى في حلمه كأنّ أنطوان يأمر البحّارة والعاملين وينهاهم، لكنّه يهمل سامي ولا يقترب منه ولا يحدّثه أبدًا. كان بالنسبة إليه عاملاً منبوذًا جديدًا التحق بطاقم السفينة منذ فترة قصيرة، أو سائحًا يتفقّد الأشياء على المركب، شريطة ألا يمسّ أي شيء بسوء أو حماقة. رأى بعدها أن المركب يميل عند إحدى فتحات النيل الجانبية، عندها يقلّ منسوب الماء فجأة، فيدخل المركب إلى أرض يابسة، تشبه قرية شارونة في وادي النيل. نزل الجميع، فنزل معهم سامي. أمسك أنطوان بورقة طويلة تشبه كشف حساب اكتظّ بالأرقام والحسابات. أخذ يراجع البضائع وأعدادها وأرقامها في صبر وجِدّ. لم يلتفت إلى سامي مُطلقًا.

صاح سامي فيه، فلم يسمعه. أشار إليه بيديه، فما وجد منه غير عدم اهتمام. حاول أن يمسك بذراعه، فرأى أن يده تخترق أنطوان، وتغوص في قميصه الأحمر، وكأنّه قَبَضَ على الهواء.

نظر ناحية أنطوان غاضبًا، ثم صاح مجددًا بصوت أعلى ونطق باسم كرستينا. انتبه أنطوان خير على الفور إليه، وبقبضةٍ قويّة جذبه من ياقته البيضاء، يزمع أن يجعل رقبته بين أصابعه الطويلة القويّة. أشار سامي إليه باستعطاف وتضرّع وهوان، فتركه أنطوان حتّى يرى ما يخفيه.

بعد أن هدأ قال سامي، فيما هو يرتب ملابسه ويعيد ياقته إلى ما كانت عليه، إنّه عابر سبيل يريد النصيحة. أطرق أنطوان في استغراب وبلاهة. أخبره سامي بأنه يريد العودة إلى كلاوديا ولكنّه متردّدٌ في هذا القرار. ظلّ أنطوان على حاله مشدوهًا لا ينطق، ولا يبدو منه أي اهتمام، ولو بسيط، بسؤاله. لم يسأل عن اسم محبوبته، ولا كيف عرف اسمه، ولم يسأله عن أمر كرستينا. لم يكترث بأيّة تفاصيل تخصّ السفينة التي تبحر في نهر النيل، وليس كعادتها في البحر الكبير. أكمل أنطوان، بتجاهل تام، عمله في فحص البضائع التي على متن سفينة الحلم، ولم يلتفت إلى سامي مجددًا.

عندما استيقظ في فجر اليوم التالي، كان شعور الإحباط يسيطر عليه ويرهق تفكيره كما تأكل النار قطعَ الثلج. شعر حينها أن أنطوان خير، الذي لم تكمل سفينته وما عليها من خطابات رحلتها، أفضل حالاً منه. ففي الحلم بدا حاضرًا، حينما غاب سامي. ظهر كطاووس

واثق من كل شيء، بينما ظلّ سامي يستجدي اليقين من شبحه دون إجابة. الأموات الهاربون يتجاهلونه، فلا يمدّون يد العون لـــه، ولـــو بالنصيحة.

على مقربة من شاطئ ليكورنا

حزيران 1759م

لأوّل مرة أرى فيها سيرة هروبي من سفينة هروبي، وكأنّها كانت البارحة. خمسة عشر عامًا مرّت، وكأنّها برقٌ لمع في سماء المَنْفَى، فلم تلحظه عيناي، ولم أدرك منه سوى أثرٍ سريعٍ لوميضه في الأجواء من حولي. إذا التمسته ورحتُ أبحثُ عنه، زاغ منّي فلا أجده. وإذا تَرَقّبْتُ مجيئَه، أهملني فلا يعود أبدًا. بدتْ الأيام أمامي موجة صغيرة، سرعان ما طواها طوْدٌ من المياه العاتية، فتبدّدتْ وذابتْ في أمواج بحرٍ مظلم.

ذاكرتي لن تنسى أبدًا صورتي، وأنا أرقد كخرقة بالية مهملة في سفينة مرّتْ من هنا قبل خمسة عشر عامًا في طريقها من طرابلس إلى ليكورنا. لم تحدّد عيناي حينها معالم للبحر أو مسار السفينة أو الأفق، ولم أتبيّن ما كان حولي، اللهمّ إلاّ جوالات الذرة وجرذًا ضئيلاً يرقص حولي في مخزن البضائع. وحدها النجوم تراءت لي عندما كنت أحاول أن أتعجّل الليل الطويل، وأنا ملقى على ظهري أستقبل السماء، أنظرُ من كوّة أصغر من قُطْر رأسي، وأبتهلُ إلى الربّ أن ينجيني وينجي الجرذ معي.

وقفت في مقدّم السفينة أراقب منظرَ بيوت ظَهَرَتْ لي من

بعيدٍ في ساحل ليكورنا، والتي أصبحت الآن مألوفة إلى عينيّ، فلا تستغربانها. تذكّرت حينها لحظة أن هربتُ من السفينة، وألقيتُ نفسي في البحر. حينها تراءت لي هذه البيوت حرّاسًا عمالقة يتربصون بي كلّما حاولت الاقتراب من شاطئ طوسكانا. اليوم فرِح قلبي وسعِد عندما رأى السفينة تقترب من بيتي، وتعيدني إلى كرستينا مجددًا. يا لتبدّل الحال عند اختلاف الأحوال.

سمعتُ حينها ضجّة تأتي من مؤخر السفينة. نظرت خلفي إلى مصدر الصوت، فرأيت من بعيد عاملَيْن يتحرّكان بسرعة في حركات غير عقلانيّة. يمسك أحدهما بعصا طويلة يضرب بها أرضيّة السفينة. اقتربت منهما لأرى ما الذي يفزعهما، ولم أكن المتفرّج الوحيد، فقد بدأ البحّارة في التجمّع حول الضجّة.

عندما لمحت قطعة صغيرة من اللون الرمادي تراوغ عصا العامل الذي فشل في صيده، انتابتني رجفةٌ شديدة وقشعريرةٌ مريرة. لا أعرف كيف صرخت بأعلى ما مكّنتْني به حنجرتي من قوّة في وجه العاملَيْن. من فرط جزعهما، فرّ أحدهما سريعًا من أمامي، وألقى الآخر عصاه في البحر. صحتُ مذعورًا ألاّ يمسَّ أحدهم هذا الجرذ بسوء، وانزويتُ في ركن السفينة أفرُكُ جبيني بيدي اليمنى، وأنا أجلسُ القرفصاء.

ذهب دانيال خلفي، وقف بجواري في صمت، ولم يرغب في إزعاجي. سألني بعد برهة إنْ كنت بخير، فأشرت إليه بيدي اليسرى دون كلام.

عندما اعتدلت، ونفضت من على كتفيّ جبل الذكرى، ذهبتُ إليه واعتذرت له عن حالتي التي رآني عليها. كصديق مخلص واساني كما يفعل دائمًا، و لم يسألني عن السبب. رأيتُ في عينيه ألف سؤال وسؤال، خبّأها مني احترامًا لخصوصيّتي، فبادرته بالإجابة عن سؤال لم يسأله. قصصت له ما كان من أمر الجرذ، الذي أنقذني من الجوع والمحنة منذ خمسة عشر عامًا. رقّ لحالي، وتحجّرت الدموع في عينيه.

بعد أن هدأتْ حالة الغضب التي تملّكتني، وجعلتني أثور وأرفع صوتي في وجه العاملين الفقراء بوحشيّة، تبادرت إلى ذهني هواجس عدّة بعدما رأيت الجرذ يحاول الهرب مذعورًا هذا الصباح. هل يا ترى كان هذا الجرذ يحذّر هاربًا على ظهر سفينتنا دون علم منّا؟

لولا أن هربت في الماضي، ورأيت الجرذ من قريب، وكيف كان مخلصًا لمن شاركه الظروف والمعاناة نفسها؛ لربّما وقفت اليوم مشاهدًا، أتابع في شوْق وحماسة وإثارة كيف تنتهي حياة جرذ آخر على مرأى من طاقم السفينة، ومِنّي. ولربّما شاركتهم القتل والمطاردة والإقصاء، بهمجيّة البرابرة، وبمنطق الجَهَلَة. ولربّما تفاخرتُ أمام أهل بيتي، أنْ أمسكتُ بالجرذ الكريه وطرحته في البحر، بعد أن مثّلت بجسده الهزيل أمام الجميع. لا يدرك المرء منا الألم إلاّ بألم، ولا يعذر المجروحَ إلاّ مجروح مثله.

نيويورك

ظهيرة 23 من يناير 2010م

يجلس سامي، حائرًا في أمره، في مكتبه يوم العطلة الأسبوعية. يحاول إنجاز التقرير الذي يستعجله الأستاذ الأمريكي في إنهائه منذ أن وطأت قدمه أرض القسم. يمسك بالقلم يريد أن يكتب، فلا تحضره الكلمات، وتهرب الأفكار منه.

الخطابات كثيرة ومتنوّعة. أراد أن يقسّمها، فحار في أمرها، وتداخلت موضوعاتها، واستعصى عليه ترتيبها. هل يقسّمها حسب تاريخ الكتابة؟ كيف وكلّها كُتِبَتْ بتاريخ واحد؟ هل يقسّمها حسب المرسل؟ من المنطقي، فالخطابات أرسلها ثلاثة تجّار فقط كانوا يعيشون في ليفورنو، إيطاليا، عندما كتبوها. لكن الحقيقة أن الخطابات لم تكن خطابات تجاريّة فقط، بل كانت هناك مراسلات بين الكنيسة في روما وبين أفراد من الأصحاب والأهل في ديار بكر، وفي المنيا وأسيوط بصعيد مصر، وفي الشام.

تحيّر من أمر الخطابات. إذا اتّفقت في اسم المرسَل إليه، اختلفت في أسماء من أرسلوها. وإذا تطابقت في أسماء المرسلين، تباينت في وجهات السفر والعناوين. وإذا اجتمعت في كل هذا، تغايرت في ما تحمله من مضامين. اختلفت وتباينت هذه الخطابات التي وجدها في

صندوق مهمل في أرشيف مكتبة القسم. غير أنها اتفقت وتشاركت في أمر واحد. فلم تصل جميع الرسائل و لم تكمل رحلتها. ربّما تأجّلت رحلتها مائتين وخمسين عامًا كي تصل إلى أيدي سامي، لتفتح تفكيره على أبواب صدأت أقفالها بسبب رطوبة بللت فكره، وركود ماء عقله فترة من الزمن.

توقّف طويلاً يفكر في رحلة الخطابات التي لم تصل إلى أصحابها. توّهم أن فكتوريا تمسك بالخطابات بيدها اليمنى، وتربّت بيدها اليسرى على كتفه وهي تقول له: "الحياة رحلة قصيرة يا فتى". بدا له مشواره كذلك مع كلاوديا كطريق طويل، قطع أكثر من نصفه، فشعر بالملل من إكماله، ورجع حيث بدأ من جديد. أو كمن ظلّ يغمر سنّارته في الماء لساعات طويلة، حتّى إذا اصطاد سمكة، ألقاها في الماء.

حاول أن يتغلّب على حالة الحيرة هذه في تقسيم الخطابات، ففعل مثلما اعتاد أن يفعل في كنف جدّه منذ عقود مضت. يسند رأسه إلى الوراء، ويتأمّل مشيته في حقول الذرة الخضراء عندما كان يختفي في أدغالها قبل أن تطول قامتُه.

كطفل صغير في قرية شارونة، كان اللعب في الغيطان والأراضي الزراعية فريضة عين. شذّ عنهم سامي، فما إن دخل ذات يوم بين نباتات الذرة العالية المتشابكة، حتّى افتُتِنَ بهندستها وهي تتّحذ في نظام معقّد. لا ينسى يوم أن عاد إلى جدّه، ودخل عليه حضرته دون استئذان، على غير المعمول به.

- "يا جدي الشيخ سيد، الدُره بتصلّي وبِتْسَبِّح زَيِّنا تمام، أنا شوفْتُهُم، صَضِّجني".

مسح الشيخ سيد على رأس حفيده بلطف، وضمّه إلى صدره، وقال له إنّه يصدقه، فكلّ المخلوقات تسبّح وتصلي لله.

كان يرى حقول الذرة تقفت متراصّة بدقّة، وكأنّها صفوف المصلين التي عجّ بها مسجد جدّه في قرية شارونة. اتّفقت صفوف المصلّين وصفوف الذرة في الاستقامة والنظام، واختلفت في ألوانها. وَحَّدَ اللونُ الأخضر حقولَ الذرة؛ بينما تباين الناس في زيّهم، وأشكالهم، وألوان جلودهم، وألوان سرائرهم، ونواياهم، وألسنتهم، وأفكارهم.

ليكورنا

كانون الأول 1759م

كم هو عسير أن أعيش راهبًا لعقد كامل، ثم أتحوّلُ إلى تاجرٍ كبير في منفاي.. أن أشارك التجّار وأصحاب المصالح والحمّالين ميناءً واحدًا، بعد أن كنت أشارك أخواني حياةَ الرهبنة المارونيّة في ديرٍ واحد.. تجمعنا تحت سقفه المقدّس سُلْطَةُ الأب الرئيس الحيّة والمحبة.. ويجمعنا الروح القدس كعائلة واحدة.. ما أصعب أن أنصاع إلى قوانين التجارة المعمول بها في الميناء، بعد أن كانت تحكمني قوانين "الطريقة" خلال أعوام التحاقي بالدير.

عندما كنت صغيرًا، التحقت بمدرسة مار يوسف في "زغرتا". درست البلاغة العربيّة، والرياضيّات، والفلك، والمساحة بجانب علوم اللاهوت والحقوق والعلوم العالية الأخرى.

دعاني الرب إلى دير مار أنطونيوس قزحيا في قلب الوادي المقدس قاديشا. وبعد عشر سنوات من الانقطاع والعبادة، جهلتُ دعوتَه، و لم أخلص لها؛ فحذفتُ نفسي بنفسي من متعة أن أكون راهبًا ناسكًا عابدًا، يوم هربتُ من الدير، وقصدت الرحيل.

قبل ذلك بأعوام، استسلمت لحياة الرهبنة، وانقطعت في دير مار أنطونيوس للعبادة والقراءة والحياة النسكيّة. في النّهار كنت أعمل

حارسًا للدير الكبير مع أخوتي، فبنياني الجسدي كان يشبه بناء الدير المهيب، ضخم ومنيع ومنيف. في الليل، كنت أخلو في قلاّيتي، أتدبّر كلمات أسقف الدير عن "العزلة" و"الشراكة".

لم أكن حينها أفهم فحوى قوله عن "الجناحيْن" اللـذيْن ربّمـا يسمحان للراهب منّا أن يرتقي بهما إلى الخالق، جنـاحي "العزلـة" و"الحياة المشتركة". كنت أتشكّك فيما يقوله الأسقف. لم أقتنع يومًا بأن العزلة عن طريق الخلوة، والاشتراك مع الآخر؛ يمكنهما معًـا أن يحلّقا بـي إلى سماء ذاتي. حتّى تركتُ حياة الرهبنة، وغادرتُ الـدير المقدس، ثم وادي قاديشا، وبعدها غادرت لبنان كلّه.

قابلت الآخر بصورة لم يتخيّلها أحد، فاقت ما كـان يعتقـده أسقف الدير الماروني، القابع في سفح جبلٍ وارف الأشجار في حضن وادي قاديشا المقدّس. غادرت قلاّيتي، وأبدًا لم تغادرني.

قابلت الآخر، وصارت عزلتي "صحيحة"، بعد أن مررت بـالله في دير لبنان، ثم بالآخر في ميناء ليكورنا.

صحَّتْ عزلتي، وصار بإمكاني من يومها أن أكتشف ذاتي. فقد صرتُ أخيرًا ما أنا، صرت إنسانًا.

كان لا بد لي أن أترك موطني.. وجبالَ لبنان.. وأشجارَ الأَرْز.. ووادي قاديشا.. وكوخي المنفي في آخر الزمان.. وحانةَ حبيبة.. وأن تحملني سفينةٌ إلى مكان لا أعلمه.. وأن يوقظني جرذٌ صغير قبـل أن تمسك بـي أيدي البحّارة الغاضبة.. وأن يلتقطني دانيـال المصـري اليهودي من شاطئ طوسكانه.. وأن ينجدني جعفر الليبـي المسـلم من الموت جوعًا في ميادين الروما.. وأن تتزوجني كرستينا الإيطالية..

وأن أشارك مئات التجار والبضائع والمراكب ميناءً واحدًا في منفاي.. حتّى يتسنّى لي أن أتفهم في النهاية حكمة الأسقف الجليلة، التي تقول:

"يحتاجُ الإنسانُ مِنَّا أن يَدْخُلَ عُزْلَةَ الآخر.. أنْ يتّحِدَ بالآخر ويلتحم به.. إنّها العزلةُ المثاليّة.. عزلةُ الاتّحاد بالآخرين".

اتّحدتُ بجعفر يوم أن شاركته غرفةً صغيرة على مقربة من الروما، حينها تعلّمت منه كيف الاجتهاد في العمل يقي صاحبَه الحاجَة والذلّ والمهانة.. اتّحدتُ بكرستينا يوم أن وافقت أن أعيش مع امرأةٍ تختلفُ لغتُها عن لغتي، وثقافتُها عن ثقافتي.. واتّحدتُ بدانيال يوم أن رددت له الجميل، فانتشلته من الموت والوحدة، وجعلته شريكًا مُخْلِصًا، وعيني الحارسة في المنفى.. واتّحدتُ بيوسف بكتي يوم أن شاركته همومَه، وأسديت له النصيحة، والتمست له الأعذار، رغم ما لمسته منه من تعالٍ وغلظةٍ في التعامل معي.. واتّحدتُ مع لغات التجّار، وأسماء البضائع، ومراكب البحر، وأمواجه الهائجة، وفناره الشاهق، وصخوره المترامية والمتلاصقة في وحدة عجيبة.

صرتُ مِثْلَ صخرة صغيرة تزاحم صخور الميناء البعيد أسفل فنار مرتفع توسَّطَ ساحل طوسكانه. تأتي أمواج البحر عليَّ بمختلف السفن واللّغات والأجناس والهموم والمآزق والأفراح والأحزان. فلا يتغيّر موضعي بين الصخور، ولا يتبدّل لوني مع تبدّل الحال، ولا تحملني ذاتي على الفرار. وجدتُ ذاتي في زحمة الكون. وجدت ذاتي في عزلة الاتّحاد بالآخرين.

نيويورك

صباح 24 من يناير 2010م

في الصباح عندما أهدى سامي فنجان الشاي اللذيذ الذي أعدّته له فكتوريا، أثنى عليها، وامتدح يدها التي أعـــدّت فنجانـــه المفضـــل. أمسكت العجوز بقطعة من الخبز، وضعت عليها قطعة جبن، وبِيَـــدٍ مرتعشة دسّتها في فمها تمضغها ببطء. لا يعرف إن كان الســـبب في تباطئها صلابةُ الخبز الذي بدت عليه آثار التحميص، أم طقمُ أســـنانها الذي تخشى عليه من التلف، أم بسبب ســـخونة الشـــاي، الـــذي تصاعدت منه الأبخرة، فأخفتْ وجْهَ العجوز. ترتشفُ من الفنجـــان رشفةً صغيرة بعد أن أهدت أولى قضماتها في التهام خبزها الســـاخن. تنظر إليه في صمت ومراقبة. تضحك عيناها وتحملق وتتحرّى حالـــه وتتفرّسه بعناية.

عندما قرّر أخيرًا أن يسأل العجوز عن نصيحتها، تبدّلت نظراتها على الفور. أصغت له، فتحت أعينًا وآذانًا كثيرة لا يعرف كيف ومِنْ أين أتت بها العجوز في لحظة خاطفة. تحوّل ركنها الهـــادئ، الـــذي تجلس فيه جوار المدفأة الكبيرة في المطبخ، إلى بالوعة أسرار عميقـــة. تركتْ الشاي والخبز وأطرقت السمع. ثم تركت هرّتها فيفي الـــتي لم تفارقها. أنزلتها من فوق حجرها في لين، وأشارت إليها بالانصراف،

وكأنّما تصرف عنها ابنتها كَيْلاَ تسمع حديثًا لا يناسب عمرها. اختلت العجوز به، كالأسد ينفرد بفريسته، ويضيّع عليها فرصة التملّص.

لساعة طويلة حكى سامي، واستمعت له فكتوريا. كشف لها كلّ ما حاول كتمانه، برغم تكتّمه الشديد، وبرغم محاولاتها اللّحوحة إيقاعه في مصيدة البوْح. كان مثله كمثل بعوضة وقفتْ تشاهد من بعيد عنكبوتًا ينسج شبكتَه في وضح النهار، وأمام أعين الفراشات والنحلات، وكل ما له جناحان ضئيلان وخفّ وزنُه. تراقبه البعوضة في بلاهة، وتحدّث نفسها وتمنّيها بأنّ هذا العنكبوت إنّما ينصب فخًّا لغيرها. وعندما استعجلتْهَا عصبيّة حركتها المباغتة وهي تتفادى موجةً من الهواء هبّتْ فجأة، ما لبثت أن وجدت نفسها مصلوبةَ الأطراف في نسيج العنكبوت، الذي أسرع إليها في ثقة.

نصبت فكتوريا له شِبَاك بَوْحه، فوقع فيها كالبعوضة، رغم رؤيته لكل شباكها التي نسجتها منذ اليوم الأوّل له في بيتها البعيد. لم يأسف على بوْحِه، ولم تسأله التفاصيل. لم تبدُ العجوز متفاجئة ممّا حكى عن قصّته مع كلاوديا بكل تفاصيلها. هزّت رأسها، الذي استند إلى يدها، إلى أعلى وأسفل في هدوء وطمأنينة. بدت وكأنّها تستمع إلى طفلها الصغير، بعد عودته من المدرسة كل يوم ورأسه محموم بالعديد من القصص، التي لا بدّ أن يفرغها جملة واحدة في رأس أمّه قبل أن ينساها. تعرف الأمّ نهايةَ كلّ حكاية من أوّل كلمة أو عبارة أو جملة تسمعها من طفلها. لو أن الأطفال يتذكّرون الحكايات التي يتناقلونها، لَمَا حكوا ولا سردوا ولا أبدعوا. بدتْ

فكتوريا كما لو كانت تعرف القصّة كاملةً قبل أن يتمَّها.

- "جيّد، وما الذي تريد أن تسمع مني؟".

قالت، وقد رفعت ذقنها عن يدها المجعّدة، ووضعت كلتا يديها على المنضدة، وقد لامس كفّاها المفرودان سطحَ المنضدة الخشبي.

- "أريد النصيحة سيدتي؟".

- "ما أقوله لن يعجبك يا سامي، لو تسمح لي أن أدعوك هكذا دون ألقاب".

كانت هذه هي المرّة الأولى التي تناديه العجوز باسمه دون أن تسبقه بكلمة "مستر".

- "بالطبع يا سيّدتي الفاضلة، يمكنك أن تدعيني كيفما شئت، وأحبّ أن أسمع نصيحة لا مجاملة".

- "ارجع"..

- "أَرجِعُ إلى ماذا؟".

- "ارجع إلى بيتك وبنتك وزوجتك التي تحبّها"..

- "هذا قرار صعب. جئت إلى هنا أبحث عن ذاتي التي رأيت أنّها ضاعت مني خلال حياتي المهمّشة مع كلاوديا، والآن تقولين لي أن أرجع إلى ينبوع حيرتي ومصدر قلقي".

- "حسنًا، لا ترجع"..

ابتسمت العجوز وهي تقولها وقد ضاقت عيناها قليلاً، وارتفع حاجباها الدقيقان كثيرًا.

- "هكذا تنصحيني؟".

- "الأمر لا يحتاج إلى نصيحة يا سامي. قلت لك أنك ستسمع مني ما لا يرضيك. ولكن الأمر أبسط ممّا يبدو عليه".
- "ولماذا لا تنصحيني بأن أشترط عليها أن تترك ألمانيا، وتعيش هنا في نيويورك معي، لنربي طفلتنا سويًّا في بلد محايد؟".
- "وما الفرق بين ألمانيا ونيويورك؟".
- "الفرق كبير. ألمانيا هي موطن كلاوديا، وتحيط بها لغتها الأم من كل جانب، ولهذا السبب كنت أشعر دائمًا بالوحدة، رغم الحبّ الذي أحاطتني به. أمّا هنا فالوضع مختلف. هنا أرض محايدة جديدة، تقع خارج نطاق لغتي ولغتها. لا تنتمي لصحرائي ولا لثلجها. هنا منطقة وسطى يذوب فيها آلاف البشر، فلا يجمعهم أي رابط غير الإنسانيّة".
- "أراك الآن تتحدث بلسان كلاوديا، أليس كذلك؟".
- "ليس تمامًا، أنا..".

قبل أن يتمّ جملته قاطعته العجوز، وعَلَتْ نبرتُها قليلاً، وبدا على قسمات وجهها الشاحب بعض الجديّة على غير العادة.

- "وطالما أنك تتحدّث عن الإنسانيّة، وزوال الفوارق بين أهل نيويورك، هل اختفت هذه الفروق هنا، وظهرت لك فقط في ألمانيا؟".
- "لم أقل هذا، ولكن الأمر معقّد ويصعب عليّ شرحه لك".

- "أنا لا أفهم هذا يا سامي. أراك تعقّد المسألة. أنت تعرف أن زوجتك لن تستجيب لطلبك هذا أبدًا. وقد ذكرتَ لي أنها امرأة عنيدة. فكيف تفعل إنْ رفضت هي طلبك؟".

- "لا أعرف!".

قال للعجوز في حيرة من أمره، وكأنّه بالفعل قد تلقّى للتوّ رفضًا من كلاوديا.

صمتَ وأشاحَ بوجهه ناحية الشمعدان الذهبي، الذي زيّن المدفأة الحجرية في وسط المطبخ. أطال التحديق إليه، ممّا دفع العجوز أن تتابع بوجهها إلى ما ينظر، وعندما التفت إليها قالت له بابتسامة واسعة:

- "ارجع".

***

في حجرته الصغيرة بمنزل فكتوريا يستلقي سامي في سريره ويفكّر في أمر الخطابات التي زاحمت عقله وتكدّست في صندوق كبير موضوع في أرض بعيدة كل البعد عن مرسليها ومستقبليها. لم تتم رحلة الخطابات، وكذلك لم تنتهِ رحلته بعد. إذا كان هناك ثمّة ما يجمع بينه وبين الخطابات، فهو بلا شكّ حالة التعذّر في الوصول إلى الطرف الآخر.

نزلت كلمات العجوز على أذنيه كرصاص منصهر يخرج من بين شفتيها. "الحياة رحلة قصيرة".. "ارجع". شاركت الهجوم كذلك كلماتُ جدّه الشيخ سيد. "فتطاردك الأماكن". تناوبت الكلمات

والذكريات عليه حتّى صار صدره كجبل يحوي داخله بركانًا أوشك على الانفجار. ثم رأى بعد هذا أنّه قد حان الوقت لكي يبحث عـــن ذاته في مكان آخر، وإلاّ أحرق نفسه دون أن يدري.

كولونيا

مساء 27 من يناير 2010م

أمام منزله القديم، الذي يقبع في حضن كولونيا بألمانيا، يقف سامي ويحمل حقيبة سفر في يده، ورجاءً في قلبه. كانت الساعة الثامنة مساءً عندما وقف في حيرة، وراح يطرق الباب. مثلما رآها أوّل مرة، تقف كلاوديا وقد أضاءت المساء البارد، وألهبتْ قلبَه وما يحيط به من ثلوج خفيفة تساقطت رويدًا حول كليهما. أطال النظر إليها دون كلمة واحدة.

كان ممسكًا بحقيبته الوحيدة التي يحملها معه، وعندما رآها ترك حقيبة السفر من يده لتسقط على الأرض بهدوء.

وقفت صامتة كصمت الليل من حولهما. حبّات ضئيلة من الدمع تجمّعت ببطءٍ داخل عينيها. تغيّرت تعابير وجهها واحمّرت وجنتاها. وضعت يدها اليسرى على فمها لتخفي ثغرًا باكيًا. حدث كل هذا وسامي يقف كالتمثال لا يتحرّك ولا يتكلّم. ينظر إليها، وكأنّه ينتظر منها إجابة عن تساؤلات كان قد سألها دفعة واحدة. أو كأب ينتظر جوابًا مقنعًا من ابنته عن ذنب اقترفته.

قبل أن تنهمر دموعها، قفزتْ كلاوديا في حضنه كطفلة تتعلّق بثياب أبيها.. طوّقته وانهمرتْ بالبكاء.. بقبضتها الرقيقة خبطته ثلاث

مرّات على كتفه اليمنى.. علا صوتها بالنحيب.. ثم انهارت في حضنه تطلب إجابة.. وما زال يقف هو مكتوف الجوارح واللسان لا يتحرك.. بعدها بقليل انفجرت عيناه بالبكاء.. وظلّ على حاله ساكنًا لا يتحرّك.

تمايلتْ كلاوديا بجسدها وهي تعانقه.. تعرب عن فرحها بقدومه.. لم تنتهِ حالة العناق تلك إلاّ عندما بزغت خديجةُ من خلف أمّها تتساءل عيناها في براءة من هذا الذي تعانقه أمّها عند الباب؟ مال على الفور إلى خديجة وقبّلها في جنون، وعانقها طويلاً.. انضمّت إليهم كلاوديا.. صار ثلاثتهم مخلوقًا جديدًا يبعث الدفء تحت سماء أثلجتْ واختفى منها القمر.

ليكورنا

12 من كانون الثاني 1759م

كنت أجلس جوار الشباك، أشاهد الأمطار الغزيرة تتساقط على الأرض المطرّزة بشتّى ألوان الزهور، أعلى تبّةٍ تحتضن بيتي الصغير تتألّقُ تحت وطأة المياه الثقيلة. تنهمر الأمطار على شجرة الياسمين الشـــرقيّة، التي أهدى إليّ دانيال بذرتَها، فترسل رائحتها الأخّاذة إلى داخل بيتي، وإلى داخل قلبـــي. قنديل صغير وضعتُه فوق المنضدة الخشـــبيّة ذات الأقدام الثلاث، التي تكوّرت تحت النافذة المطلّة على ردهة المنـــزل. أمسك بيدي قلمًا جديدًا كان قد أهداه لي برناركي خلال زيـــارتي الإسكندرية.

على المنضدة مزهريةٌ تحمل ورودًا تُشبه في جمالها وجه زوجـــتي، ودواةٌ للحبر، والكثيرُ من الأوراق والدفاتر. فنجانٌ من القهوة أعدّتـــه لي كرستينا في "بكرج" القهوة الأزرق الجديد، الذي جـــاء ضـــمن شحنة المركب الأخير من دمياط الأسبوع الماضي. أمسكُ يدها برّقة، وقد لاحت في عيني نظرة حبّ وشكر تحمل الكثير من الكلمـــات، دون كلام.

كرستينا.. عندما تصبح امرأة بحجم مرساة كبيرة، عندما تبتلـــع سيدةٌ كلّ طيور النورس الشاردة، وتحوّلها إلى جزيرة ووطن وســـفينة

وموجة. كرستينا.. الأساطير الرومانيّة عندما تفتح البـــاب بالحـــب لطريد شرقي، جاء هاربًا من ماضٍ خطير.

كنت قبل خمسة عشر عامًا أنام في طرقات الروما مثل الكلاب الضالّة والمشرّدين.. أفتّش في القمامة عن أي شيء أسدّ به جـــوعي.. أعيش في حالة ترقّبٍ لشبح من الماضي، من لبنان، يطاردني بلا توقف أو هوادة.

كانت كرستينا بالنسبة إليّ، خلال تلك الأعوام المنصرمة، وتدًا لخيمة أخذتها الريح طويلاً في صحراء التيه.. حياتي ما قبلها، كانـــت كحياة نورس، لا يستقرّ في ميناء واحد طويلاً.. وقت تحليقي أطـــول من وقت مكثي.. كمن يزرع النخيل، سمّرتني وغرستني في منفـــاي الأخير.. بالقوّة واللين جعلتني أستقر في مرساها.

في تلك الليلة المطيرة، عندما انتهيتُ من شرب كوب القهـــوة، ذهبت إليها وارتميت في حضنها الدفيء دون أي كلمة.. كنت أضّمها بقوّة وكأنّي عائدٌ من سفر بعيد.. لم تسألني عن السبب، ولم تتعجب من فعلي.. ضمّت رأسي لصدرها في سكينة.. تركتُها بعد أن قبّلت يدها في تحنان، ثم عدتُ إلى منضدتي ذات الأقدام الثلاثة، وأمسكت بالقلم، وواصلت كتابة أحد الخطابات:

بعونه تعالي

يرحل الى محروسة سكندرية يسلم ليد الإغر الإكرم

الشيخ إسماعيل الجميعي

أمانة مرسله بالخير.

حاوي خير..

بعد مزيد السلام وكترة الاشواق اليكم بكل خيراً وعافيه الذى نبديه إلى جنابكم لا يخفاكم قبل تاريخه توجه من طرفنا مركب قبطان براتو راجوزي وصحبته حررنا لكم مكتوب كافي جواب مكاتيبكم وبه شرحنا لكم عن كافة احوال طرفنا وعرفناكم بوصول البضاعه حقكم...

سطر في ليكورنا، 12 كانون التاني 1759

مخلص لكم محب

أنطوان خير

تم..

رواية

لِيكُوْرْنَا

محمد الطماوي

«لا أعلم كيف أخذتني الأمواج وحملتني وطرحتني خارجها إلى يابسة لم تطأها قدماي من قبل. التصقتْ رمالُ الشاطئ بوجنتي الملامسة للأرض. كنت أقرب إلى البرزخ من الاستفاقة، وإلى الغيبوبة من الصحوة. أهلوس بأسماء غريبة، وأصرخ بصوت غير مسموع. تلوح أمام ناظري المشوَّش بفعل الشمس المحرقة صورةُ جرذٍ كبير يقترب منّي، يريد أن يساعدني. يأمرني أن أتشبَّث بشاربه الذي بدا لي كمرساة كبيرة تتدلّى من السفينة التي كانت تطاردني بالأمس، وأنا في حيرة من أمري ولا أدري، هل أتعلّق بشاربه؟ أم أتفلّتُ منه؟

في أحضان رمال الغياب لا ينبغي أن يثق المرء بأي كائن، حتّى وإنْ كان جرذًا صغيرًا يَهْدِي إلى الطعام، ويصدر صريرًا فينبِّه به غافلًا على ظهر سفينة في وَحْشَة البحر.»

@MuhammadTemawy

ISBN: 978-9948-24-473-8

9 789948 244738

هذا الكتاب بدعم من:
1001 عنوان
مبادرة 1001 عنوان

ثقافة THAQAFA
للنشر والتوزيع ذ.م.م.
Publishing & Distribution L.L.C.

جميع كتبنا متوفرة في موقع نيل وفرات.كوم www.neelwafurat.com - www.nwf.com